Act for the DISAPPEARED | لنعمل من أجل المفقودين

www.actforthedisappeared.com

بيروت، لبنان 2025

توجيهات الصحة النفسية والدعم النفسي الاجتماعي للعمل مع أسر المفقودين في لبنان

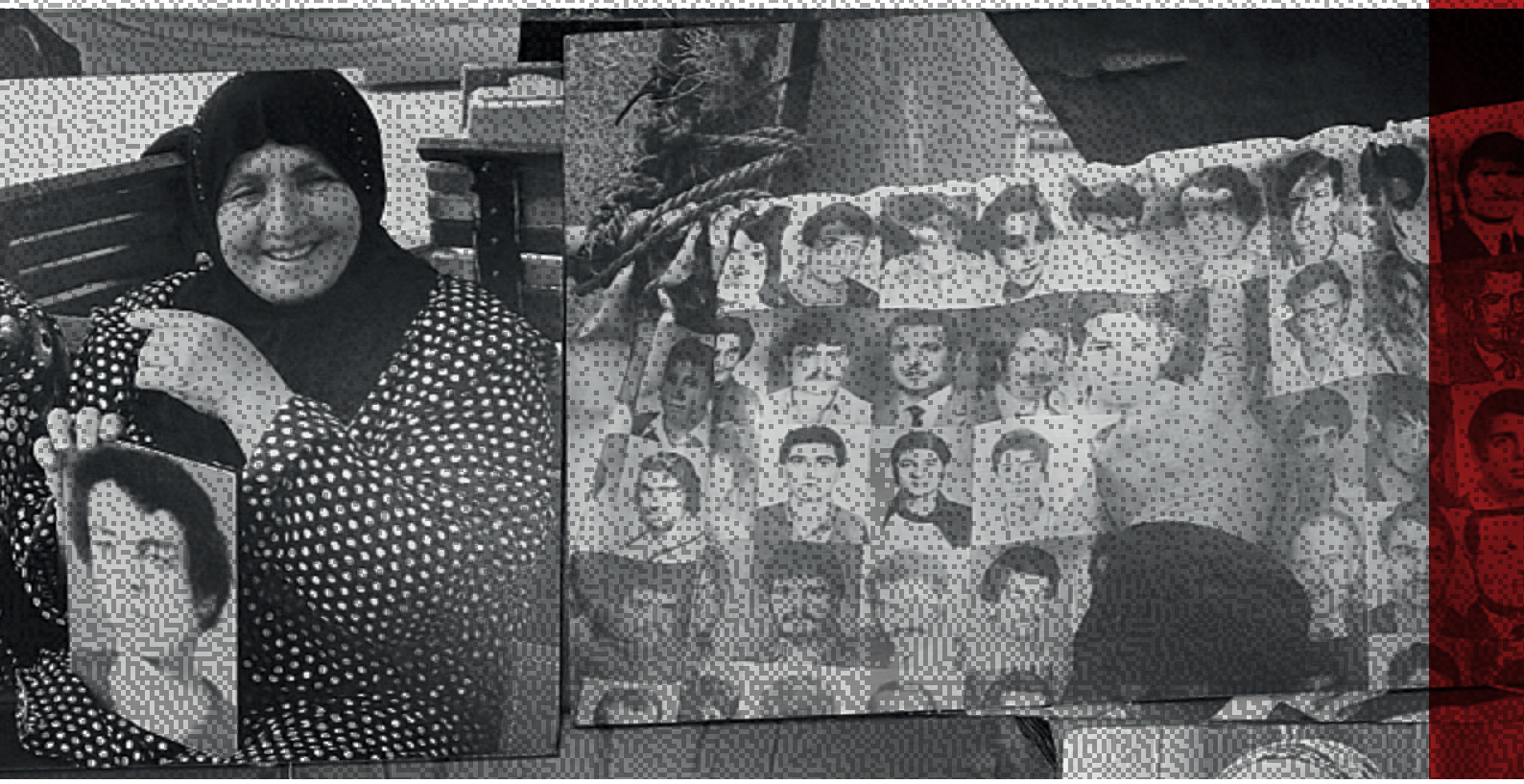

Supported by

german cooperation
DEUTSCHE ZUSAMMENARBEIT

Implemented by

giz Deutsche Gesellschaft für Internationale Zusammenarbeit (GIZ) GmbH

فهرس المُحتويات

الملخّص التّنفيذي ---- **4**

المقدّمة ---- **5**

مقدّمة عامة ---- 5

الهدف والنطاق ---- 6

لمَ اعتمادُ مقاربةٍ واعية بالصّدمات؟ ---- 6

مَا هي المُقاربةُ الواعية بالصّدمات؟ ---- 7

أهداف التعلّم ---- 7

الفصل الأول: موجز عن تاريخ الحرب اللبنانيّة، قضية المفقودين والتّعقيدات في عمليّة تقصّي الحقائق ---- **9**

عرضٌ تاريخيّ موجز عن الحرب اللّبنانية ---- 9

قضية المفقودين خلال الحرب اللبنانية ---- 10

وقائع مهمة أدّت إلى عمليّات الإخفاء ---- 12

السبت الأسود – 1975 ---- 12

الخميس الأسود - 1975 ---- 12

مجزرة الكرنتينا - 1976 ---- 12

مجزرة الدامور - 1976 ---- 12

تل الزعتر وجسر الباشا - 1976 ---- 12

صبرا وشاتيلا - 1982 ---- 12

حرب الجبل - 1983 ---- 12

إعدام مدنيين مسيحيين في الجية وعلمان وأكثر من ثلاث عشرة بلدة - 1985 ---- 13

حرب المخيمات - 1985 ---- 13

محاولات التستر عن الحقيقة والخطوات المتّبعة من قبل السلطات ---- 13

محاولات سابقة للسلطات ---- 13

القانون رقم 105 وآثاره ---- 14

الفصل الثاني: نطاق احتياجات عائلات المفقودين ---- **15**

نتائج تقييم اللّجنة الدّولية للصليب الأحمر لاحتياجات العائلات - 2013 ---- 15

نتائج وتوصيات تقييم "لنعمل من أجل المفقودين" لاحتياجات العائلات - 2021 ---- 23

الفصل الثالث: الفقدان الغامض: مسارٌ زمنيّ نفسيّ اجتماعيّ وتجارب يتشاركُها أقارب المخفيين ---- **32**

التعمق في مفهوم الفقدان الغامض ---- 32

"خرجَ بلا وداع" – قصّة شخص مفقود 33
مراحل الفقدان الغامض 35
البحث النَّشِط 36
التهرّب من مشاعر اليأس والعجز 36
التّقلّب ما بين أملٍ ويأس 37
التيقّظ والحفاظ على الروتين والطقوس 37
تناوبُ الأمل واليأس 37
الرغبة في العودة إلى الحياة الطبيعية 38
ضغوطات من السلطات وأفراد العائلة 38
التّأقلم مع الغموض 38
أثر الإخفاء على الصّعيد الفردي والعائلي والاجتماعي 38
على صعيد الفرد 39
على صعيد العائلة 39
على صعيد المجتمع 43
الفصل الرابع: المبادئ التّوجيهيّة والاعتبارات المتعلّقة بالصّحة النفسيّة وبالمجال النفسيّ الاجتماعي 45
المبادرات السابقة للأطراف المعنية مع العائلات 47
جلسات الدعم النفسي الاجتماعي وأنشطة تخليد الذكرى 47
تخليد الذّكرى 49
المقاربة الواعية بالصدمات 50
كيف يُطبّق هذا التعريف على عائلات المفقودين؟ 51
نموذج ال"4Cs" 52
كيف تُطبّقُ المقاربة الواعية بالصدمات مع عائلات المفقودين 53
الفصل الخامس: التعامل مع ضغوط العمل في قضايا المفقودين 62
حالات الإجهاد التراكمي 62
استراتيجيات العناية بالذات 63
رعاية الموظفين العاملين على ملفّ المفقودين 64
أولوية الدعم التنظيمي للموظفين 64
المبادئ الأساسية لرعاية الموظفين 64
نصائح العناية بالذات 65
ملاحظات ختامية 66
قائمة المراجع والمصادر 67

الملخّص التّنفيذي

تسببت الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) في دمار هائل، حيث أودت بحياة أكثر من 100,000 شخص وخلّفت آلاف الجرحى والمهجّرين والمفقودين. بالنسبة لعائلات المفقودين والمخفيين قسرًا، يستمر تأثير الصراع كفراغ مؤلم، مليء بالأسئلة التي لا تنتهي حول مصير أحبائهم. هذا الغموض المستمر يتسبب في ألم نفسي وعاطفي واجتماعي عميق، ويحول دون تحقيق المصالحة والسلام.

في ضوء هذه التحديات، يقدم هذا الدّليل إرشادات مبنية على فهم تأثير الصدمات لدعم عائلات المفقودين في لبنان، مع التأكيد على ضرورة التحلي بالحساسية والتعاطف في كل جزء من عملية الكشف عن الحقيقة. وقد تم تصميمه ليكون مرجعًا للأطراف المعنية بالكشف عن الحقيقة، بما في ذلك الهيئة الوطنية للمفقودين والمخفيين قسرًا في لبنان، بالإضافة إلى جمعيّات المناصرة الأخرى، بهدف ضمان أن تكون التدخلات إصلاحية ومدروسة بما يتناسب مع تجارب العائلات المعقدة والمتعددة التي تحمل صدمات الماضي.

المقدّمة

مقدّمة عامة

في 13 نيسان/ أبريل من العام 1975، اندلعت في لبنان حربٌ استمرت أكثر من خمسة عشر عامًا، وحصدَت مئات الآلاف مِن الأرواح وخلّفت آلاف الجرحى والمعوّقين والمفقودين. انتهت الحربُ عقبَ التّوصّل إلى اتفاق المصالحة الوطنية المعروف باتفاق الطائف. ومن بينِ ضحايا الحرب الكُثر، مفقودون ومخفيون قسرًا لا تزالُ مظلوميتهم مستمرّة حتى يومنا هذا بسبب الظّلمِ المُتجسّدِ بحرمانِ العائلات من أيّ إجابة. فالأمهات والآباء والإخوة والأخوات والزوجات والأزواج والأقارب لا يزالون يقبعُونَ في الظّلمةِ، بِلا إجابات عن مصائر أحبائهم. تُعاني العائلات بصمتٍ، إذ يقفُ غيابُ الإجابات عن جرائم الإخفاء القسري هذه حجرَ عثرة أمامَ المصالحة والسلام بين المجتمعات المختلفة.

تُعرّفُ اللجنة الدولية للصليب الأحمر المفقودَ تعريفًا شاملاً، على النّحو التّالي:

المفقود هو شخصٌ لا يعرف أقرباؤه/ أقرباؤها مكانَ وجوده، و/أو الّذي تمّ الإبلاغ عن فقده، استنادًا إلى معلوماتٍ موثوق منها، على صلة بنزاع مسلّح، دولي، أو غير دولي، أو، حالات عنف أخرى أو كارثة طبيعيّة أو أي حالة أخرى تتطلّب تدخّل سلطات الدّولة المختصّة وفقًا للتشريعات الوطنيّة (اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 2009).

منذ انتهاء الحرب الأهليّة، لا يزالُ هذا الملف يحشدُ الكثير من المناصرين على الصعيدين الدّولي والمحلي على حدّ سواء. ففي عام 1982، شكّلت عائلات المخطوفين "لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان" التي أصبحت الكيان الأطول استمراراً في الدّعوة إلى الحصول على الإجابات. وتستمر اللجنة في قيادة الجهود الرّامية إلى مواجهة مِحنة المخطوفين والمفقودين، ممثّلةً نضال عائلاتهم المستمر من أجل العدالة وبلوغ النهاية.

في عام 2010، تأسّست جمعية "لنعمل من أجل المفقودين" المحليّة التي تهدف إلى دعم عائلات المفقودين والمخفيين قسرًا في سَعيِهم إلى معرفةِ مصائر أحبائهم وأماكنهم. وتُشارك الجمعية في جهود بناء السّلام والمصالحة في سبيل الإقرارِ بمعاناة الضحايا وإتاحةِ التّشافي الجماعي وإعادة التلاحم الاجتماعي.

في تشرين الثّاني/ نوفمبر من العام 2018، أي بعدَ مرور قرابةَ الثلاثة عقود من نضالِ عائلات المفقودين وإعلائِهم الصّوتَ بمطالبهم، وبفضلِ دعمِ هاتَيْن الجمعيتَيْن الفاعلتَيْن، أقرَّ مجلس النّواب اللبناني قانونًا خاصًا بالمفقودين والمخفيين قسراً (القانون 105\2018) ينصّ على تشكيل هيئةٍ وطنية يُناطُ بها التّحقيق في مصائر المفقودين وأماكنهم. وعليه، تشكّلت الهيئةُ آنفة الذّكر في حزيران/ يونيو من العام 2020، وتولّت المهام التالية:

- توضيح مصير المفقودين والمخفيين قسرًا.
- تحديد أماكن الدفن ونَبشها.
- التعرّف إلى الرفات البشري وإعادته لأهالي أصحابه، وتقديم جبر الضّرر للعائلات.

لا تزال عائلات المفقودين تعاني أضرارًا نفسية جسيمة ناجمة مِن الشعور بعدم اليقين في شأن مصائر أحبائهم، كما تُعاني صعوباتٍ اقتصادية وقانونية وإدارية مترتّبة عن هذا الإخفاء الأليم. وتوالَت العقود، ومطالبُ تلكَ العائلات لم تُلبَّ، فَعلى الرغم من بذلها قُصارَى جهودها في البحث عن المفقودين، لم تفِدها الحكوماتُ المتعاقبة بأيّ معلومة تُذكر.

الهدف والنطاق

اليوم، ونظرًا إلى مشاركة مختلفِ الأطرافِ المعنية في عملية تقصّي الحقائق، تُواجه العائلات خطرِ التّعرّض لصّدمة جديدة[1]، لا سيّما خلالَ عمليّة نَبشِ المقابر. هذا يستدعي إشراكَ جميع الجهات الفاعلة في عملية البحث، من أجلِ اعتماد مُقاربةٍ مُتعدّدة القطاعات وواعية بالصدمات في مجال الصحة النفسية والدعم النفسي الاجتماعي، بهدف تجنب إلحاق المزيد من الأذى بالعائلات.

لذا، يُوضّحُ هذا الدليل سياقَ معاناة عائلات المفقودين في لبنان، فيعرضهُ أوّلاً مِن منظارٍ تاريخيّ، ثمَّ عملانيّ فَنفسيّ اجتماعيّ، حتَّى يختتم بطرحِ مبادِئَ توجيهيّة في شأنِ المُقاربات المُعتمدة في دعم العائلات على اعتبارِها جُزءًا من المجتمعات الأكبر حجمًا.

يهدف هذا الدّليل إلى دعم الهيئة والأطراف المعنيّة، ومواكبة أعمالِ كُلٍّ منهما في تقصّي الحقائق. لذا، مِن الضّروري تصميم كلّ خُطوة بشكلٍ يُراعي تأثيرها المُحتمل على الصعيد الفردي والعائلي والمجتمعي، وذلكَ لضمانِ أن تكونَ هذه الجُهود جابرَة للضرر بالنّسبة إلى الضّحايا. باختصار، إنَّ الدّليلَ هذا يرمي إلى:

1. إعطاء لمحة موجزة عن تاريخ الحرب اللبنانية وتسليط الضوء على معاناة عائلات المفقودين خلال تلك الفترة، بالإضافة إلى عرضِ الخطوات التي أدّت إلى إقرار القانون رقم 105، وذلكَ بُغية تحديد سياقِ القسم الثّاني من الدّليل.
2. طرح المبادئ التوجيهيّة والتوصيات مِنِ منظارٍ واعٍ بالصدمات لمساندة العائلات خلال المراحل الصّعبة المرتبطة بعمليّة تقصّي الحقائق.

لمَ اعتمادُ مقاربةٍ واعية بالصّدمات؟

تُشكّلُ المقاربة الواعية بالصدمات والمُراعية لها جوهرَ هذا الدليل وصلبَهُ. وسيتمّ عرضها والتّوسّع في شرحها على امتدادِ هذا الدّليل.تُعرّف الجمعية الأمريكية لعلم النفس في الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية الصّدمة بأنّها استجابة عاطفية لحدثٍ مروّع مثل حادث، أو جريمة، أو كارثة طبيعية، أو، إساءة جسدية، أو عاطفية، أو إهمال، أو التعرّض للعنف، أو مشاهدته، أو وفاة أحد الأحباء، أو الحرب، أو غيرها (الجمعية الأمريكية لعلم النفس، 2013).

أمّا وكالةُ "إدارة خدمات إساءة استخدام العقاقير والصحة النفسية" (SAMHSA)، فتُعرّفُ الصّدمة تعريفًا شاملاً بأنّها "حدثٌ أو تسلسلُ أحداثٍ أو اجتماعُ ظروفٍ تلحقُ بالفردِ أذيّة جسديّة أو عاطفيّة أو تهديدًا للحياة، ولها عواقبُ وخيمة دائمة على أداء الفرد، ورفاهِه العقليّ أو الجسدي، أو الاجتماعيّ، أو العاطفي، أو الروحي."

إلاّ أنَّ تعريفَ الصدمة النفسية لا يقتصر على معايير التشخيص فحسب. ففي الواقع، ابتعدَ بعضُ الأطباء عن اعتبارِ الأعراض المرتبطة بالصدمة مؤشراتٍ على الاضطرابات العقلية، وبدلاً من ذلك، أصبحوا ينظرُونَ إليها كأنّها جزءٌ من غريزة الإنسان الطبيعية للبقاء على قيدِ الحياةِ أو كأنّها "عمليّاتٌ عقليّة تكيفيّة تنطوي على استيعاب المعلومات الجديدة ودمجها مع التركيز الشديد على البقاء على قيد الحياة الّذي سبّبه التعرّض للصدمة" (ترنبل، 1998) ولا تتفاقم هذه العمليات التكيفيّة الطبيعية إلى حالاتٍ مرضيّة إلاّ في حال كُبِحَت بطريقةٍ ما أو في حال لم يُعترف بها، وبقيت، تاليًا، بلا علاج (سكوت، 1990).

-(1) إعادة التعرّض للصّدمة هوعَيش الصدمة النفسية الأساسيّة مجدّدًا، وذلكَ بسبب مثيراتٍ واقعيّة أو رمزية تسفرُ عن إعادة خوضِ المشاعر الصّعبة نفسها الّتي اختُبِرَت لحظةَ وقوع الحدث الأوّلي أو الظّروف الأوّليّة.

تختلف الآراء حول كيفية النظر إلى الصدمة وفقًا للمراجع والأُطر المختلفة، حيث ساهمَ آخرون في تحديد صفاتِ الصدمة على نحوٍ أوسع. فعلى سبيل المثال، عرّفَ هورويتز (1989) الصّدمة بأنّها "حدثٌ مفاجئ وقويّ يفوقُ قدرة الشخص على التّصدي له، علمًا أنّ الصّدمة لا تنطوي، بالضّرورةِ، على إلحاقِ أذيّة جسديّة فعليّة بالفرد؛ ويمكنُ أن يكون الحدث صادمًا في حال تعارض مع نظرةِ الفردِ إلى العالم أو في حال غلبَ الحدثُ قدرةَ الفرد على التّأقلم" (هورويتز، 1989)

وقد واجهت عائلات مفقودي الحرب اللبنانية التّعرضَ التراكميّ لأحداثٍ مرتبطة بالإخفاء تهدّد الحياة، ومنها الحرب، والإبادة الجماعيّة، والتعذيب، والهجرة القسرية، والقمع المُمنهج. وقد أسفر ذلك عن تعرّضهم لصدمات معقّدة ومتسلسلة، إذ يساهم كلّ حدثٍ في تفاقم تأثير حادثة الفقدان الأساسية. وفي موازاةِ عواقبِ الإخفاء الوخيمة المستمرة، تحمّلت العائلات مصاعبَ إضافية خلال الحرب، وتعرّضت حياة أفرادها للخطر في بعض الحالات في معرض بحثهم عن مفقوديهم، ما زاد من حدّة الأثر النفسي والعاطفي.والصّدمةُ النّفسيّة التي تعانيها العائلات متغلغلة ومُلازمة بطبيعتها، إذ لوحظ أن تأثيرها ينتقل من جيلٍ إلى جيل. فغالبًا ما تنشأ الأجيال الأصغر تحت تأثيرٍ دائمٍ لفقدان أحد الأقارب، يغذّيه الغموض الذي يكتنف تاريخ عائلاتهم.

لذا، فإنَّ تنوّعَ التجارب الصادِمَة هو الدّافعُ الأساسيّ إلى اعتمادِ مُقاربة واعية بالصدمات بدلاً من مُقاربةٍ خاصّة بالصدمات. فلو كانَ الإخفاء قد وقعَ خارج سياقِ الحرب، لكانَت المُقاربة الخاصّة بالإخفاء تَفِي بالغرض، لكنّ الأمر ليسَ كذلكَ في حالة مفقودي الحرب اللبنانية.

مَا هي المُقاربةُ الواعية بالصّدمات؟

إنّها "مُقاربةٌ تقومُ على فهم وقع الصّدمة والاستجابة لها، وتُشدّدُ على الحماية الجسدية والنفسية والعاطفية لكلا الطرفين، أي الناجين ومقدمي الخدمات، وتُوجِدُ فرصًا للناجين تُخوّلهم استعادَة الشّعورِ بالسّيطرة والتمكين" (هوبر، وباسك وأوليفيت، 2010، ص.82).

وبُغيةَ الحفاظِ على نزاهةِ هذه المُقاربة الخاصّة، تُعدُّ المبادئ الواعية بالصّدمات جوهريّةً وأساسيّة، وتتمثّل فيما يلي:

- **السّلامة** - أي أن تضمنَ شروط التفاعل مع العائلات سلامتها الجسدية والنفسية على حدّ سواء.
- **الثقة** – أي أن تلتزم الأطراف المعنيّة بمسؤوليّتها تجاه العائلات، ممّا يُعزّز شعورها بالثّقة.
- **الخيار** – أي أن تُمنحَ العائلات خياراتٍ عدّة في مواضِعَ محدّدة، مما يسهم في شعورها بالتحكم والقدرة على اتخاذ القرار.
- **التعاون** – أي أن تشارك العائلات في الأنشطة المرتبطة بعمليّة تقصّي الحقائق.
- **التمكين** – أي أن يُقرَّ بالعائلات وخياراتها وآرائها وأن تُحترم، حتّى لو لم تُطبّق.
- **احترام التنوّع** - أي أن تُحترَم أصول العائلات وخلفيّاتها المتنوعة.

أهداف التعلّم

للوصول إلى النّهج التّعويضي، يهدف هذا الدّليل إلى:

1. تثقيف الأطراف المعنيّة، المتحدّرة من خلفيات وثقافات متعدّدة، حولَ التعريفات الأساسيّة في مَجالِ الصّحّة العقليّة ولمجال الدّعم النفسي الاجتماعي، الّتي تُعدّ المُفتاحَ لِفهم تجربة المخفيين على الصّعيد الفردي والعائلي والمجتمعي على حدٍّ سواء.

2. وصف التجارب المشتركة الّتي عاشها أفراد العائلات، وذلكَ من جوانبها التّاريخيّة، والنّفسيّة، والقانونية، والإدارية، والصّحيّة، والماليّة.

3. مساعدة الأطراف المعنيّة على فهم المخاطر المُحدقة بِعملية إجلاءِ الحقيقة، والفرص السّانِحة لمعالجةِ الصّدمات النّفسية في المجتمعاتِ، وإمكانية إقامة المصالحة فيما بينها.

4. مؤازرة الأطراف المعنيّة في وضع استراتيجية تخصُّ كلَّ خطوةٍ من خطوات عملية تقصّي الحقائق، وتتبّعُ مقاربةً واعية بالصدمات.

5. دعم الأطراف المعنيّة بمساعدتهم على فهم أثرِ هذه الجهود على رفاهيتهم وصحتهم، وصحة موظفيهم، النّفسية.

الفصل الأول: موجز عن تاريخ الحرب اللبنانيّة، قضية المفقودين والتّعقيدات في عمليّة تقصّي الحقائق

"لا تملك المجتمعات ترفَ إغفالِ التعامل مع ماضيها. فإن لم يتمّ التعامل معه على نحوٍ استباقيّ، سيظلُّ يطاردُ مجتمعات ما بعد النزاع".

بول فان زيل، 2006

يترنّحُ تاريخ الحرب اللبنانية من دفّة إلى أخرى بحسب راويه. في حالة الحرب اللبنانية، تختلفُ الروايات حولَ الوقائع نفسها، لأنّ الحربَ لم تبلغ حلاًّ جليّاً، بل أُبرِمَ اتّفاقٌ وضعَ حدًّا للاشتباكات. والاتّفاقُ هذا هو الإجماعُ على أنّ كلّ الأطراف المنخرطة في النّزاع قد تكبّدت خسائرَ فادحة.

صحيحٌ أنّ الاشتباكات المسلّحة توقّفت في العام 1990، لكن، اليومَ، أي بعدَ مرور أكثر من ثلاثين عامًا، لا تزالُ الحرب قائمة بأوجهٍ مختلفة، فقد خلّفت الكثير من الضحايا في ظلِّ انعدامِ العدالة والغموض الّذي يشوبُ الحقيقةَ في شأنِ الوقائع الّتي جرَت، بالإضافة إلى كثرةِ الرّوايات حولَ كُلِّ واقعةٍ منها.

عرضٌ تاريخيّ موجز عن الحرب اللّبنانية

لبنانُ بلدٌ يتحدّرُ شعبُهُ من مُختلف الطّوائف الدّينيّة والخلفيات الثّقافية، ولعلّ أحد أبرزِ أسباب اندلاع النّزاع الدّاخلي هو الخشية من التّحوّل إلى أقليّة.

قبيل اندلاع الحرب اللبنانيّة، تصاعدت حدّة التوتر حولَ التهديد الوجودي بين مختلف الجماعات. فبدأت المعسكرات المُتنافسة تتسابق إلى التّسلح، بدعمٍ من قوى إقليميّة، ما أدّى إلى نشوبِ الحرب. في 13 نيسان/أبريل من العام 1975، كان بيار الجميل، رئيس حزب الكتائب المسيحي آنذاك، هدفَ عمليةِ اغتيالٍ باءَت بالفشل. وفي وقتٍ لاحق من اليوم نفسه، قام مسلحون بنصب كمين لحافلةٍ كانَ معظمُ ركّابها مِن الفلسطينيين المدنيينَ، فقُتِلَ 27 شخصًا منهم، واندلعت الاشتباكات بين القوات الفلسطينية المسلمة والقوات المسيحيّة، ممّا أدّى إلى إشعالِ فتيلِ الحرب اللبنانية.

والحربُ الّتي كانت بدايتُها أهليّةً، سرعانَ ما انخرطَت فيها دولٌ مجاورة لدعمِ قوًى داخليّة. هذا وقد دخلَت البلدَ قوى ائتلافيّة عدّة، كانَ هدفها وقف النزاع، لكنّها لم تكن تتوصّل إلاّ إلى حلولٍ مؤقتة. ثمّ أخذت الأوضاعُ تدهور، وفشلَ كُلٌّ من الوسطاء والقوات الرّادعة للحرب في فرض إحلالِ السّلام، وراحَت المؤسسات الحكوميّة تتفكّكُ أكثرَ فأكثر. وتضاعفَ عددُ المليشيات المنخرطة في الحرب، ونشبَت النّزاعات ضمنَ الطّوائف الكُبرَى في المناطقِ الواقعةِ تحتَ سيطرةِ كُلٍّ منها، وما عادَت للقتالِ بواعِثُ واضِحَة. في 22 أيلول/سبتمبر من العام 1989، توسّطت جامعة الدول العربية لوقف إطلاق النار، والتقى القادة اللبنانيون والعرب في المملكة العربية السعودية. فأُبرِمَ، آنذاك، اتفاق الطائف، الذي سُمّي على اسم المنطقة التي وُقّع فيها، وهو قد مهّدَ السّبيلَ أمامَ إنهاءِ الاشتباكات من خلال إعادة توزيع السلطة بين مُختلف الطوائف.

في 26 آب/ أغسطس من العام 1991، أقرّت الحكومة اللبنانية قانون العفو العام (القانون 84\91) عن جميع جرائم الحرب المرتكبة، مَا قلّصَ المساحةَ الكفيلة بتحقيقِ المُحاسبة أو إحقاقِ العدالة الانتقالية لصالِح ضحايا تلكَ الجرائم والناجين منها، ومِن ضمنهم أولئك الذين تعرضوا للإخفاء القسري. وعلى الرغم من أنّ جريمة الإخفاء القسري هي جريمة مستمرة تُتيحُ لأقارب المفقودين الاحتكام إلى القضاء، فقد شكّلَ كُلٌّ من قانون العفو والخوف من الثّأر، رادعًا منيعًا أثنَى العائلات عن اتّخاذها اجراءاتٍ قانونية بحقِّ الجناة.[2]

قضية المفقودين خلال الحرب اللبنانية

"لا عدالة بدون حقيقة ولا عدالة بدون مصالحة".

غسان مخيبر، 2006

على مدَى خمسة عشر عامًا من النزاعات المسلّحة، فُقِدَ الآلاف من الأشخاص، ما زالت عائلاتهم في بحثٍ مستمرّ عن إجاباتٍ شافية، عاجزينَ عن تخطّي التاريخ المؤلم الّذي عانوه. أمّا الغموض الّذي يكتنفُ مصائرَ المفقودين، فهو وليدُ عواملَ عدّة، لعلّ أبرزها:

- **الغموض حول الدافع إلى الخطف:** قد يكونُ الدّافع إلى الخطف والإخفاء القسري طائفيًّا، أو سياسيًّا، أو شخصيًّا. وحينَ يقعُ الخطفُ أو الإخفاء القسري نتيجةَ عملٍ ميلشيا، فيعني أنّه إمَّا عملٌ متعمّد وإمَّا ناتجاً عن فعلٍ مُرتزقة.
- **مكان الإخفاء المجهول:** فُقدَ أثرُ العديد من الأشخاص عندَ نقاط التفتيش، أو من الشوارع، أو من منازلهم، أو أثناء غزو مناطق خاضعة لسيطرةِ ميليشياتٍ معادية. وقد شاعَ خلالَ الحرب الاعتقال التعسفيّ والإعدام خارج نطاق القضاء والإخفاء القسري في العديد من المناطق اللبنانية.
- **تنوّع الجناة:** كان الجناة يتحدّرونَ من خلفياتٍ مختلفة. يعتقدُ بعضُ الأقارب أنّ المفقودين كانُوا يُقتلونَ على الفور أو بُعيدَ خطفهم، وتمّ إخفاء جثثهم في مقابر جماعيّة وذلكَ من أجلِ إحداثِ صدمةٍ في صفوفِ الأعداء؛ باعتبارِ ذلكَ شكلاً من أشكال التعذيب. أمّا بعضُ الأقارب الآخرينَ فيعتقدُونَ أنّ مفقوديهم قد نُقلوا إلى السجون السورية أو الإسرائيلية.
- **تنوّع الضحايا:** الضحايا كانوا من خلفياتٍ مختلفة، بينهم لبنانيّون وفلسطينيون، بالإضافة إلى آخرينَ من جنسياتٍ عربية وأوروبية وأمريكية.
- **الغموض النّاجم مِن الشائعات:** تكاثرَت الشائعات حول مصير المفقودين في وقتِ الحرب، وأوقدتْها الجماعات السياسية والميليشيات، من أجلِ تأجيجِ لهيبِ الطائفيّة في قلوب الشباب المقاتلين على الجبهات.

وفي ظل انعدامِ المُحاسبة، تحوّلت القوى الكبرى نفسها التي نقَشَت الظلم في وقائع الحرب إلى أحزابٍ حاكمة في لبنان 'ما بعد الحرب'.

(2)- لا يمكن تطبيق العفو على مرتكبي الجرائم المستمرّة، وجريمة الإخفاء هي جريمة مستمرة طالما أنّ مصائر المخفيين لَم يُكشف عنها"، راجع المركز اللبناني لحقوق الإنسان، لبنان
الإخفاء القسري والحبس الإنفرادي، 21 شباط/ فبراير 2008، ص36،
http://www.rightsobserver.org/files/CLDH_Enforced_Disappearance_EN_2008.pdf

المفقودونَ بالأرقـــام.
من أصلِ 1,562 حالة مُوثّقة
94.6% رجال
5.4% نساء
أكثـر من 230 بالغًا
أكثـر من 80 مراهقًا
5 مسنين
3 أطفال
28 عامًا هو مُتوسّط عمر المفقودين
مصدر الصّورة: مجهول
المصادر: اللّجنة الدّوليّة للصليب الأحمر
www.actforthedisappeared.com
Act for the DISAPPEARED

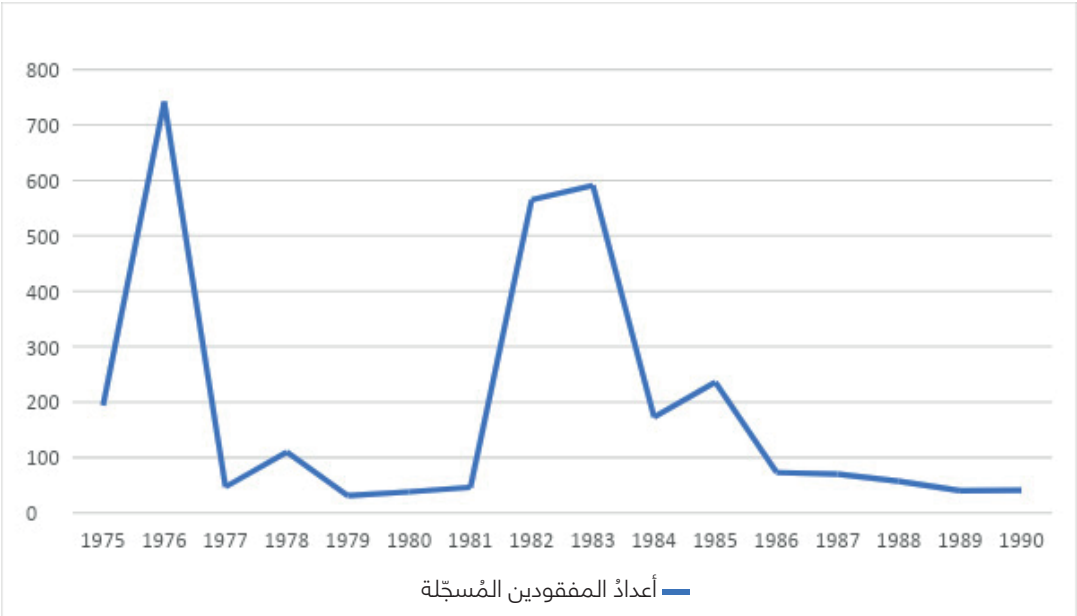
800
700
600
500
400
300
200
100
0
1975 1976 1977 1978 1979 1980 1981 1982 1983 1984 1985 1986 1987 1988 1989 1990
أعدادُ المفقودين المُسجّلة

وقائع مهمة أدّت إلى عمليّات الإخفاء

وقعَت حالات الإخفاء القسري طوالَ الحرب الأهليّة، لا سيّما خلالَ سنواتِها الأولى حينَ أشعلَ العنف الطّائفي والنّزاع اللّبناني الفلسطينيّ فتيلَ الخطف والإخفاء القسريّ.

إنّ عددَ الأشخاص المفقودين الواردَ هنا هو عددٌ تقريبي، يستندُ إلى بياناتٍ مُختلفة المصادر[3]. ولعلَّ ما يهمّ أكثر من مُجرّد إحصاء الأرقام هو تحديد الاتجاهات، فَمِنَ المُلاحظ أنّ عددًا كبيرًا من الأشخاص هم في عِداد المفقودين. فيما يلي، عرضٌ لِبعض الأحداث المِفصليّة المرتبطة بفتراتِ الذروةِ الثّلاث المُبيّنة في الرسم البياني أعلاه، وهي:

السبت الأسود – 1975

قُتل أربعة رجالٍ مسيحيين، وثأرت لهم ميليشياتٌ مسيحية فَغزت منطقة مرفأ بيروت وارتكبَت مجزرةً بحقّ لبنانيين مسلمين وفلسطينيين.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحو 300 إلى 400 شخص.

الخميس الأسود - 1975

اندلعت موجةٌ واسعة من القتل والإعدام والخطف الطّائفي، ردًّا على مقتل رجلٍ فلسطيني وسطَ المدينة. فنصبَ كِلا الطّرفين الحواجزَ وارتكبا المجازر.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحوَ 50 شخصًا.

مجزرة الكرنتينا - 1976

هاجمت الميليشيات المسيحية منطقة الكرنتينا التي كانت تحت سيطرة منظمة التّحرير الفلسطينيّة، فَقضت على أيّ وجودٍ للمسلمين.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحو 1500 شخص.

مجزرة الدامور - 1976

ثأرَت الميليشيات الفلسطينية لِمجزرة الكرنتينا، فَغزَت منطقة الدامور والبلدات المجاورة وقضَت على الوجود المسيحي فيها.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحو 500 إلى 600 شخص.

تل الزعتر وجسر الباشا - 1976

بعد فرض الحصار على مخيمَيْ تلّ الزعتر وجسر الباشا للّاجئين الفلسطينيين، سيطرَت عليهما الميليشيات المسيحية. وطوالِ فترة الحصار ثمّ خلالَ الهجوم الذي تبعه، قُتِلَ آلاف الفلسطينيين، أو أُعدموا، أو خُطِفوا أثناء هروبهم وقبلَ وصولهم إلى بيروت الغربية.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحوَ 1500 إلى 5000 شخص.

صبرا وشاتيلا - 1982

عقب اغتيالِ الرئيس المنتخب بشير الجميل، قامت الميليشيات المسيحية بمؤازرةٍ من الجيش الإسرائيلي بحصار مخيم اللّاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا لمدة ثلاثة أيام، ثم قامَت بقتل سكّانِه الفلسطينيين واللّبنانيين.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحو 3500 شخص.

حرب الجبل - 1983

عقب انسحاب القوات الإسرائيلية من وسط لبنان إلى الحدود، اشتدَّت الحرب بين الميليشيات المسيحية والدرزية، ممّا أسفر عن مقتل وإخفاء نحو 2700 مدنيّ.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحو 3000 إلى 4000 شخص.

-(3) قاعدة بيانات جمعيّة لنعمل من أجل المفقودين

إعدام مدنيين مسيحيين في الجية وعلمان وأكثر من ثلاث عشرة بلدة - 1985

خُطِفَ عددٌ غير محدد من المدنيين خلال غزو معظم البلدات المسيحية الواقعة على ساحل بيروت الجنوبي.

حرب المخيمات - 1985

اندلعَت الاشتباكات بين الميليشيات اللّبنانية الشيعية من جهة ومنظمة التحرير الفلسطينية في العام 1984، وبلغت ذروتها في العام 1985.

عدد القتلى والمفقودين المُقدّر: نحو 3800 شخص.

إنَّ الأحداث الّتي أدّت إلى عمليّات الإخفاء القسري المرتبطة بالحرب اللبنانية، تمتّدُ مما قبلَ بدايتها إلى ما بعدَ نهايتها. لكنَّ الأحداث آنفة الذكر هي الأبرز على السّاحة الدّاخليّة. ومن شأنِ هذا العرض العامّ أن يرسمَ إطارَ الظّروف الّتي شكّلت أرضًا خصبة لارتكابِ جرائم الإخفاء القسري. فقد كانَ الشّعب اللّبناني كثير الانفعال، وشديد التّعصّب والضّغينة، بسببِ أوجه الظّلم والأحكام المُسبقة الّتي سادَت قبلَ الحرب واتّخذت شكلَ الطّائفيّة. وما فاقمَ هذه الأزمات سوءًا هو وجود التنظيمات الأجنبيّة المسلّحة وأطماع الدول المجاورة على حدّ سواء.

محاولات التستر عن الحقيقة والخطوات المتّبعة من قبل السلطات

على الرّغم من مضيّ سنواتٍ طِوال على انتهاء الحرب، لا تزالُ عائلات كثيرة تبحثُ جاهدةً عن إجابات حول مصير أحبائها. ولعلَّ الجهة الفاعلة الرئيسة التي تُمثّل العدد الأكبرَ من عائلات المفقودين هي "لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين" في لبنان. فقد أطلقَت وداد حلواني، زوجةُ المفقود عدنان حلواني، نداءً عبرَ الإذاعة، دعَت فيه أقارب المفقودين الآخرين إلى التجمّع، وكانَ ذلكَ الخطوة الأولى نحوَ تشكيل اللّجنة في 25 تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1982.

ومنذ ذلك الحين، لم تتوانَ اللّجنة عن ممارسة الضّغط من أجلِ جلاء الحقيقة، عبرَ تنظيمها اعتصامات والاجتماع بالشخصيات السياسية. ثمّ تطوّرت أساليب عمل اللّجنة وتبلورَت أكثر فأكثر على مرّ السنين، إلى أن تبنّت اللّجنةُ، في العام 2009، طريقة عمل قانونية وبدأت بالضغط من أجل سنِّ اقتراح قانون المفقودين. بعد سنواتٍ طويلة من صياغة الاقتراح، تمّ إقرار القانون رقم 105 في العام 2018. وكانَ الهدف الأساسي من هذا القانون هو تشكيل هيئةٍ وطنية مستقلة غير تمييزيّة، لها ولايةٌ إنسانيّة تقومُ على توضيحِ مصير المفقودين في لبنان وتحديد أماكنهم.

محاولات سابقة للسلطات

قبلَ إقرارِ القانون رقم 105، قامت السلطات بعدّة محاولات فاشلة من أجلِ توضيح مصير المفقودين أو إغلاق ملفهم نهائيًّا، وقد كان ذلكَ على النحو التّالي:

- **1984-1987:** تشكلّت لجان خاصة من أجلِ إجراءِ التّحقيقِ في عمليات الإخفاء. لكنَّ اللّجانَ هذه لم تأتِ بأيّ نتائجَ ملموسة، ما خلا التّقرير الّذي أحصى 764 مُعتقلاً.
- **1991:** نُشِرَ تقريرٌ رسمي يُعلنُ أنّ عددَ المفقودين يبلغ 17,415 شخصًا. وكان هذا العددُ المُحصَى، موضعَ شكٍّ، وهو لا يزال كذلكَ حتّى اليوم، إذ تبيّنَ أنَّ القائمة الّتي أعدّتها السلطات تضمّ أسماء مُكرّرة وأسماء مفقودِينَ عُرِفَت لاحقًا مصائرهم.
- **1995:** أُقرَّ قانونٌ يفصّل الإجراءات التي يمكن للعائلات أن تتّبعها من أجل إعلان وفاةِ مفقوديها.
- **2000:** وبعدَ ضغوطٍ جمّة مارستها لجنة أهالي المفقودين والمخفيين قسرًا، أنشأت الحكومة "اللجنة الرسمية للتقصّي عن مصير المفقودين والمخطوفين". أصدرت اللّجنة بيانًا أعلنت فيه أنّ جميع المفقودين مَا عادُوا على قيدِ الحياة وأنّ على عائلاتهم أن تعلن وفاتهم. وأكدّت اللّجنة وجودَ مقابر جماعية وحدّدت ثلاث مواقع

- لهذه المقابر.. وقد أُرسِلَت قائمةٌ بأسماء المفقودين، عبرَ اللّجنة الدوليّة للصليب الأحمر، إلى سوريا وإسرائيل، فنفَت كُلٌّ منهما حيازتها أيّ معلوماتٍ عنهم.
- **2001:** تشكّلت لجنةٌ أخرى وتلقّت طلباتٍ للبحث عن 700 مفقودٍ، إلّا أنّها لم تقم بأيّ تصريحٍ رسميّ.
- **2005:** تشكّلت هيئة سورية لبنانية مشتركة وأُنيطَ بها أن تُحقّقَ في مصير نحوَ 600 مفقودٍ ممّن يُفترض أنّهم موجودون في السّجون السّورية، على أن تُعدَّ تقريرًا في شأنهم ترفعه إلى مجلس الوزراء، إلّا أنّها لم تُصدر أيّ تصريحٍ رسميّ على الإطلاق.

القانون رقم 105 وآثاره

في العام 2018، أقرّ مجلس النّواب اللبناني القانون رقم 105، الّذي كرّسَ قانونًا الحق في معرفة مصير المفقودين والمخفيين قسرًا في لبنان وكذلك الحق في التّعويض والمُعاملة من دون تمييز. وكانَ الهدف الأساسي من القانون رقم 105 هو تشكيل هيئة وطنية مستقلة للمفقودين والمخفيين قسرًا لها أهدافٌ واضحة، وتعمل على تقديم إجاباتٍ للعائلات حول مصير مفقوديهم من خلالِ اتّباعِ مبادئ توجيهيّة عمليّة تكشفِ حقيقة اختفائهم. وقد أكّدَ هذا القانون ضرورة اتخاذ تدابير وقائية للحؤول دونَ وقوعِ حالات إخفاء قسري في المستقبل، بالإضافة إلى تحديد هويّات المفقودِين المتوفينَ وحماية رفاتهم وفقًا للمعايير الدوليّة.

ومع مرور الوقت، كبرَ ذوو المفقودِين ومنهم مَن طعنَ في السّنّ، ولا يزالُ وِزر الذّاكرة التي يحتفظون بها عن أحبائهم تزدادُ ثقلاً، وهذا ما يُحتِّمُ اتّخاذ إجراءاتٍ فوريّة. لقد أصبحَ الملفُ أكثر صلابة بفضلِ البيانات المجمّعة والقوائم الموحدة وعينات البيانات المرجعية البيولوجية[4] ودعم العديد من الجهات الفاعلة المتخصّصة في مجالها والمستعدّة لدعم الهيئة حديثة النشأة.

-(4) يرث الشخص حمضه النووي مباشرةً من والديه. كلٌّ منهم لديه الحمض النووي الخاص به، باستثناء التوائم المتطابقة والتوائم المتماثلة.

الفصل الثاني: نطاق احتياجات عائلات المفقودين

يتناول هذا الفصل نتائج وتوصيات وُضعت بناءً على تقييمين أساسيين لاحتياجات عائلات المفقودين. التقييمُ الأوّل؛ أجرته اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر عام 2011 كخطوة أولى من أجل تحديد احتياجات العائلات بعد مرور أكثر من عشرين عامًا على انتهاء الحرب اللبنانية. وقد رَمَت اللّجنة الدوليّة للصّليب الأحمر إلى إرساء الأسس لِفتحِ ملف المفقودين في لبنان لدى السلطات والأطراف المعنيّة الأخرى. التقييم الثّاني؛ أجرته جمعيّة "لنعمل من أجل المفقودين" في العام 2021، أي بعدَ إقرارِ القانون رقم 105، وتعيين أعضاء الهيئة الوطنية، وذلكَ بغية الإتيانِ بتوصيات عمليّة تُوجِّهُ الأعمال الجابرة للضّرر. فيما يلي، مقتطفاتٌ مُقتبسة حرفيًّا عن المصدر الأصليّ لكلّ تقييم.

نتائج تقييم اللّجنة الدّولية للصليب الأحمر لاحتياجات الأسر - 2013

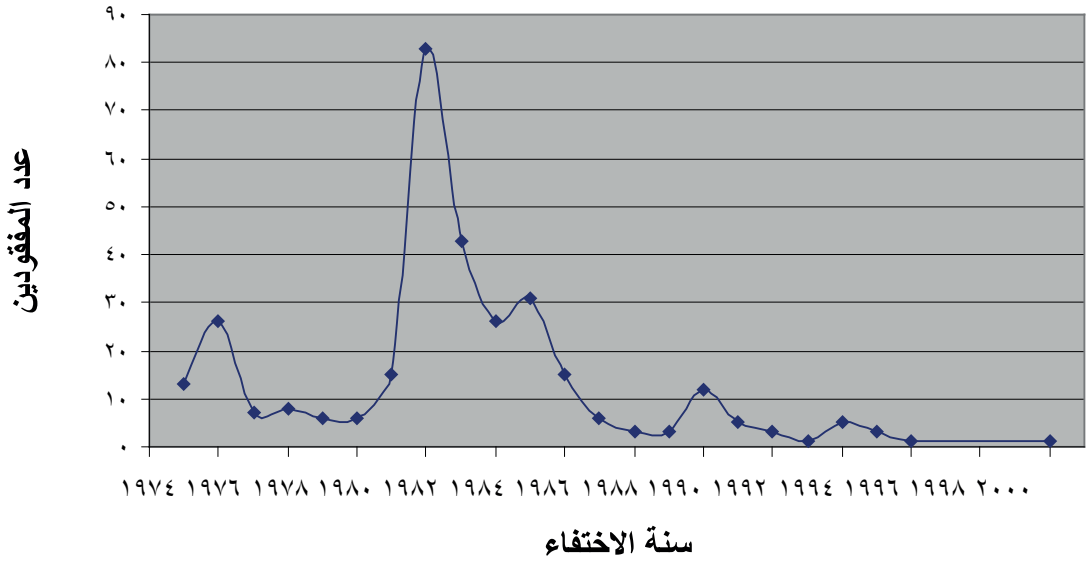

رسم بياني يظهر عدد الأشخاص المفقودين خلال السنوات منذ ١٩٤٧ حتى العام ٢٠٠٠.

يُبرز هذا التقرير احتياجات عائلات الأشخاص المفقودين في لبنان استنادًا إلى التقييم الذي أجرته اللجنة الدولية للصليب الأحمر في الفترة ما بين آب/ أغسطس 2011 وحزيران/ يونيو 2012، ويعرض النتائج الرئيسية لهذا التقييم من أجل إلقاء الضوء على الاحتياجات الفعليّة للعائلات، كما يقدّم بعض التوصيات بشأن كيفية تلبية هذه الاحتياجات. وسبق أن عُرضت نتائج التقييم على السلطات اللبنانية مرفقة بسلسلة من التوصيات موجَّهة خصيصًا إليها.

يهدف هذا التقرير إلى مشاركة نتائج التقييم مع مجموعة واسعة من الجهات المعنية بقضية المفقودين وعائلاتهم.

يتضمن التقرير ملخصًا للتوصيات الرئيسية التي قُدمت سابقًا إلى السلطات اللبنانية، ومجموعة جديدة من التوصيات الموجهة إلى جميع الجهات المعنية الأخرى، ولا سيما العائلات نفسها، جمعيات العائلات، المنظمات غير الحكومية، إضافة إلى السفارات ووكالات الأمم المتحدة والجمعيات الخيرية والشركات الخاصة المهتمة بتمويل مشاريع تلبي احتياجات عائلات المفقودين.

نظرًا لأن الاستجابة المنسقة والمتكاملة ضرورية لتحقيق النتائج، تأمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن يسهم هذا التقرير في تحفيز جهود متكاملة لتلبية احتياجات عائلات المفقودين.

استكملت اللجنة الدولية المعلومات التي كانت قد سجَّلتها في الماضي عن المفقودين بمعلومات من المنظمات الأخرى المعنيَّة بهذا الموضوع وبالأسماء التي تسلمتها من السلطات، وتضمنت في النهاية هذه القائمة المجموعة أكثر من 3500 اسم شكلت القاعدة التي تم الاستناد إليها لاختيار عينة ممثلة من العائلات التي أجرت اللجنة الدولية مقابلات معها في إطار الدراسة بعنوان: تقييم احتياجات عائلات الأشخاص المفقودين. وقد عكست العيِّنة قدر الإمكان تناسب التوزيع الجغرافي ولم تتضمن إلاّ عائلات المفقودين التي توفرت لنا معلومات عن كيفية الاتصال بأحد أفرادها على الأقل.

وجُمعت المعلومات عن عائلات المفقودين من خلال ملء استبيان جرى تكييف أسئلته وفقًا للوضع اللبناني وتُرجم بعد ذلك إلى العربية. وتضمَّن الاستبيان أسئلة مغلقة بخيارات محدَّدة وأسئلة مفتوحة تتعلق باختفاء الشخص، والصعوبات التي تواجهها العائلة بسبب هذا الإخفاء (شملت المشاكل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والقانونية)، والجهود المبذولة للبحث عن الشخص المفقود، والإجراءات التي اتخذتها السلطات اعترافًا بوضعها الخاص.

وأُجريت المقابلات مع 324 عائلة في الفترة ما بين أيلول/ سبتمبر 2011 وكانون الثاني 2012 وتولى القيام بها موظفون من اللجنة الدولية تمَّ تدريبهم خصيصًا لهذا الغرض، إضافة إلى ذلك، عُقدت ثلاث جلسات نقاش جماعية ركزت بشكل خاص على احتياجات العائلات في محيطها الاجتماعي وما تنتظره من السلطات.

وقبل إجراء المقابلة، كان يُحاط أفراد العائلة الذين سيجيبون عن الأسئلة علمًا بالغرض العام من جمع المعلومات، والطريقة التي ستستخدم بها هذه المعلومات، مع التشديد على سريَّة البيانات الشخصية المجموعة وتسلم كل من المشاركين منشورًا توضح فيه كل هذه النقاط، وكان يُطلب من جميع المشاركين التوقيع على رسالة موافقة شخصية وكانت المشاركة طوعية.

بالرغم من الاختلافات المميِّزة للأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات، سواءٌ بالنسبة إلى الطبقة الاجتماعية، أو الموقع الجغرافي، أو العمر، أو الجنس، إلخ.. ونظرًا إلى الفترة الطويلة التي امتدت خلالها حوادث الإخفاء (ما بينَ عاميّ 1975 و2000) وظروفها المختلفة تمامًا، كان من الملفت بروز تناسق كبير بين إجابات العائلات فيما يتعلق باحتياجاتها.

وكانت المشكلة الرئيسية التي تواجهها العائلات هي الفاجعة الأليمة التي ولدَّها غياب أحبّائها والصعوبات النفسية في التغلب على الشك الدائم بشأن مصيرهم. ويبدو ذلك ملفتًا فعلاً نظرًا إلى الوقت الطويل الذي انقضى منذ اختفاء القريب، إذ بلغت أعداد المختفين ذروتها خلال السبعينات والثمانينات، أي قبل أكثر من 25 إلى 35 سنة، ولا يزال أفراد العائلة يعانون حتى اليوم عاطفيًّا، ونفسيًّا ويواجهون صعوبات داخل بيئتهم الاجتماعية، الأمر الذي يثبت أنه من المستحيل للعائلات إيجاد العزاء بدون الحصول على إجاباتٍ عن مصير أقاربها المفقودين.

إلاّ أنّ كل الجهود المبذولة للبحث عن المفقودين لم تحقق حتى اليوم أية نتائج ولم تقدم أية آفاق ملموسة في المستقبل القريب. ولهذا كانت المطالب الرئيسية للعائلات هي "معرفة مصير الشخص المفقود" و"البحث عن الشخص المفقود وإعادته" و"معرفة الحقيقة" والتي كانت تُذكر دائمًا قبل أي نوع آخر من المطالب، ولا سيما قبل أي طلب بمساعدات مالية أو مادية.

النتائج الأساسية

المستند رقم 3: الاجراء (أو الاجراءات) التي تحبّذها العائلات

الحاجة إلى المعرفة

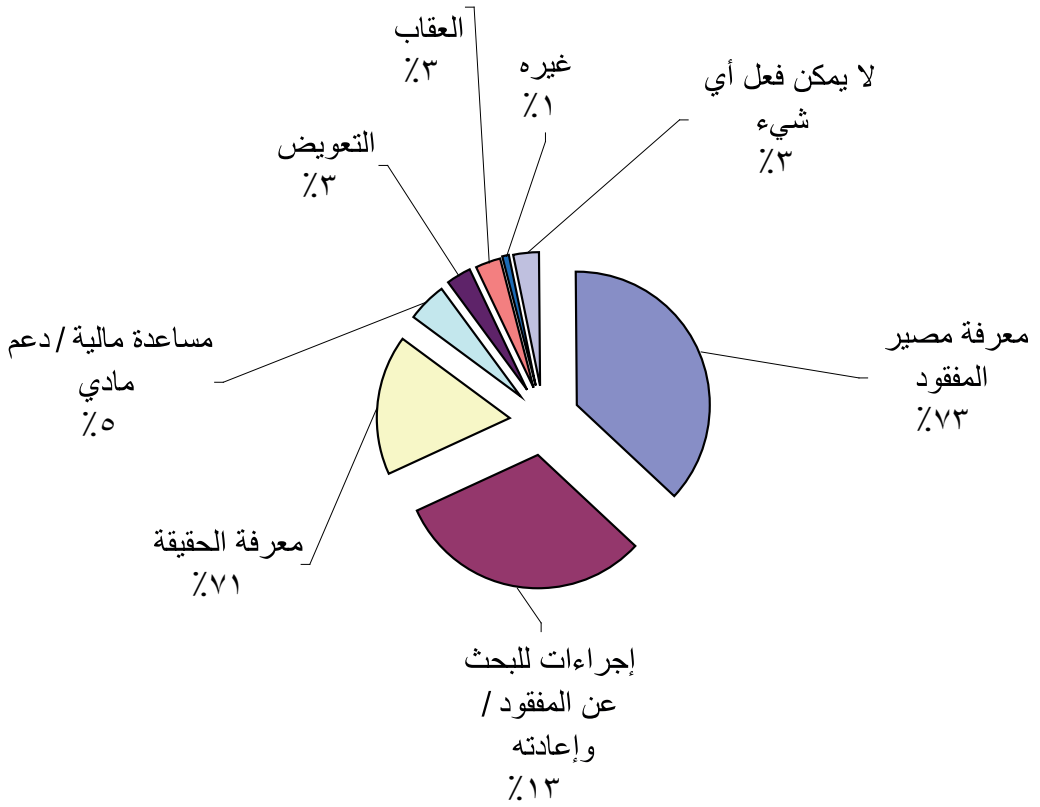

رسم بياني يظهر النسبة لكل من الإجراءات أو الاحتياجات التي عبر عنها أهالي المفقودين.

"يجب أن نعرفَ ماذا جرى. لا نستطيع البقاء ضائعين هكذا وحائرين. لو سمعت شيئًا من شخص ما، لن أصدّق وسأظل ضائعة حتى أرى الجثة بعيني."

(شقيقة أحد المفقودين)

"أريد التحقّق مما جرى، أريد معرفة الحقيقة. ما جرى مضى وانتهى (يللي صار صار) ولكن يجب أن يتحققوا إن كان لا يزال موجودًا في مكان ما. وإذا كان موجودًا في مكانٍ ما، يجب أن يُساعدونا. إن بقي هناك سجناء يجب أن يعيدوهم إلينا. سمعنا من أناس نثق بهم أنّ بعض الأشخاص أفرج عنهم في سوريا بعد 15 سنة من الحبس."

(شقيق أحد المفقودين)

بَينما يستطيع أفراد عائلة الشخص المتوفى الصلاة والترحُّم على روحه والحداد عليه وإعادة بناء حياتهم، غالبًا ما تعجز عائلات المفقودين عن وضع حد لمعاناتها وألمها. وعادة ما تقاوم العائلات التي لا تملك أخبارًا مؤكدة عن قريبها فكرة القبول بوفاته أو حتى النظر في مثل هذه الإمكانية. ومن ثمّ يستمر أفرادها في العيش في حالة من الضياع لا يعلمون ماذا حل بقريبهم وأين هو، الأمر الذي يؤثر إلى حد كبير في حياتهم الشخصية.

ويعتقد أفراد العائلات الذين جرت مقابلتهم، في غالبيتهم (77% أنظر الرّسم البياني أدناه) أنّ القريب المفقود لا يزال حيًا أو هم على الأقل غير متأكدين من مصيره. ومع أنهم يدركون أن احتمالات أن يكون قد لقي حتفه كبيرة، لم يفقدوا الأمل في رؤيته حيًا يُرزق، ولم تقبل إلاّ أقلية من الذين أجريت معهم المقابلات (23%) باحتمال وفاة القريب، وغالبًا لأن العائلة تلقت من جهات أخرى معلوماتٍ موثوقة ولو أنها ظلت غير مؤكدة.

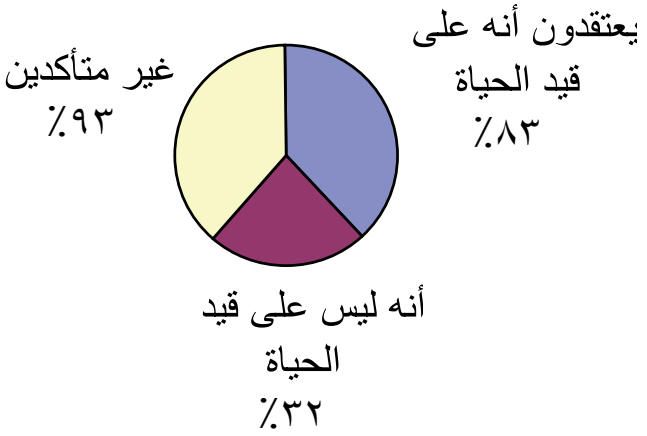

رسم بياني يظهر نسبة اعتقادات الأهالي حول مصير الشخص المفقود.

قامت كل العائلات تقريبًا التي أجريت معها مقابلات (97%) بالبحث الفعلي في وقت ما عن القريب المفقود، والقلة القليلة التي قالت إنها لم تبحث عن المفقود (10 عائلات من بين 324 عائلة) لم تتمكن من ذلك إمَّا بسبب الأوضاع الأمنية وإمَّا لأنها لم تكن تعرف ماذا تفعل. وكان يعني البحث عن قريب مفقود إنفاق مبالغ كبيرة وقضاء أوقات طويلة في التنقل من مكان إلى آخر، بما في ذلك إلى سوريا. وصدَّق أفراد العائلة روايات أشخاص غرباء ادَّعوا أنهم يملكون معلومات عن المفقود، ولكنهم كانوا يحاولون في الواقع كسب المال بنقل معلومات غير مؤكدة. واستنفدوا كل قنوات البحث المتاحة واتصلوا بالشرطة والجيش والسلطات القضائية كما اتصلوا بالأحزاب السياسية ورجال الدين. وظلّت بعض العائلات تبحث طوال عشرات السنين، وما يقرب من نصف عددها (45% من العائلات التي جرت مقابلتها) أكدَّت أنها لا تزال حتى اليوم تبحث عن قريبها. واستسلم البعض الآخر في وقت من الأوقات بعد فقدان الأمل بالعثور بنفسه على المفقود أو لأن الأفراد واجهوا مشاكل أخرى، أغلبها يتعلق بصحتهم، حالت دون متابعة مساعيهم.

عندما كان ذلكَ مناسبًا، سُئل الذين أجريت معهم المقابلات عما يحتاجونه لو تبيّن أنّ قريبهم توفّى فعلاً، وأجاب 60% من بينهم، ردًا على سؤال حول ما يمكن أن يشكل جوابًا مناسبًا عن مصير القريب المفقود، أنهم يودّون

رؤيـة الجثـث. ويفتـرض ذلـك تحديـد مواقـع المقابـر، واسـتخراج الجثـث، والتعـرُّف علـى الهويـات. ورأت 75% مـن العـائلات أنَّ مـن المهـم تحديـد موقـع المقبـرة أو علـى الأقـل معرفـة مـكان وجـود المفقـود. وأكّـدت قرابـة 70% مـن العائلات أنَّ من "المهم جدًّا" استرجاع الجثة لأسباب دينية ونفسية على حدٍّ سواء.

وتُظهـر كلّ هـذه النتائـج أن الحصـول علـى معلومـات موثوقـة عـن مصيـر الأشـخاص المفقوديـن ومـكان وجودهـم يرتدي أهمية قصوى بالنسبة إلى عائلاتهم.

وإلـى حيـن تلقـي العـائلات معلومـات مُرضيـة تتيـح لهـا تحمُّـل اختفـاء القريـب العزيـز، يجـب احتـرام قناعاتهـا بشـأن مصيـر المفقود ومراعاتها في وضع الحلول الرامية إلى تلبية حاجاتها.

الاحتياجات النّفسيّة والعاطفيّة

"أصبحت الأم والأب في نفس الوقت"

(زوجة أحد المفقودين)

"كنت أغار من كلّ الذين لهم أب. وكنت أشعر باستمرار إنني غير مكتمل لأنّ لا أبَ لي."

(ابن أحد المفقودين)

أظهـرت المقـابلات التأثـر البالـغ لأفـراد عـائلات المفقوديـن علـى الصعيديـن العاطفـي والنفسـي. وجـاء وصفهـم للصعوبـات التـي واجهوهـا والجهـود التـي بذلوهـا للتغلـب عليهـا وطريقـة تحملهـم فقـدان القريـب صادمًـا ومؤثـرًا. وتجسـدت معاناتهـم فـي مشـاكل محـدَّدة بعينهـا. فقـد قـال مـا بيـن 60% و85% مـن الذيـن جـرت معهـم المقـابلات أنهـم يعانـون غالبًـا مـن الصـداع، واضطرابـات فـي النـوم، ويظهـرون عصبيـة وتوتـرًا وقلقًـا مـن أشـياء بسـيطة، وغالبًـا مـا يتعبـون بسـهولة، ولا يشـعرون عمومًـا بالسـعادة. ورأوا أن معاناتهـم ترتبـط بشـكل مباشـر بعـدم معرفـة مصيـر المفقـود العزيـز. وقـال فـي غالـب الأحيـان أخـوة وأخـوات المفقوديـن إن هـذا الحـزن الدائـم هـو الـذي قتـل الآبـاء الذيـن ماتـوا بـدون أن يعلموا ما حدث لأبنائهم أو بناتهم.

وبالنسـبة إلـى غالبيـة الذيـن جـرت معهـم المقـابلات (حوالـي 60%) لـم تتأثـر سـلبًا علاقاتهـم بعائلتهـم وبمـن هـم حولهـم، إلاّ أن البعـض الآخـر تكلّـم عـن صعوبـات فـي العلاقـات مـع أفـراد العائلـة و/أو الجيـران أو زمـلاء العمـل أو غيرهـم دامت طويلا ً وما زالت بدون حل.

وكانـت أسـباب هـذه الصعوبـات متنوعـة، منهـا أن تجـد نفسـك وحيـدًا فـي تحمُّـل أعبـاء البحـث والتعامـل مـع العواقـب العمليـة العديـدة الناجمـة عـن الإخفـاء، والشـعور بالاكتئـاب، ومـع مـرور الوقـت الإحسـاس باليـأس وخيبـة الأمـل. ووصـف أفـراد العـائلات مشـاعر عـدم الثقـة بالآخريـن والشـعور بالذنـب والأسـى. وسـواء عانـت هـذه العـائلات مـن مقاطعة أفراد آخرين من الجماعة أو أنها فقدت هي اهتمامها بالحياة الاجتماعية، أو الاثنين معاً، كانت النتيجة هي نفسها.

وواجهـت زوجـات الرجـال المفقوديـن صعوبـات خاصـة فـي الاضـطلاع وحدهـن بتبعـات مسـؤولية العائلـة. وكان وضعهـن العائلـي غيـر واضـح؛ زوجـات أم أرامـل؟ وواجهـن عـدم التفهـم لهـذا الوضـع الخـاص وحتـى نبـذ المجتمـع لهـن وقلـة الاحتـرام وأحيانًـا المضايقـات مـن جانـب مـن كان حولهـن. ووجـدت الكثيـر مـن هـؤلاء النسـوة عالمهـن ينحصـر تدريجيًا في البحث عن الزوج المفقود والكفاح اليومي لتلبية حاجات أولادهن.

وذكـر مـا يربـو علـى نصـف عـدد الأفـراد الذيـن أجريـت معهـم المقـابلات أن الديـن والطقـوس والشـعائر الدينيـة كانـت أفضـل عـون لهـم، وقالـت غالبيتهـم (67%) أنهـم كانـوا يسـتطيعون التحـدُّث عـن مشـاكلهم الشـخصية ليـس مـع أفـراد العائلـة فحسـب وإنمـا أيضًـا مـع مـن حولهـم. إلاّ أن 80% مـن الذيـن جـرت معهـم المقـابلات قالـوا إنهـم يناقشـون القضايـا المتعلقـة بالقريـب المفقـود داخـل العائلـة فقـط. ولـم تكـن العـائلات ترغـب فـي طـرح هـذه المسـألة الحسَّاسـة خـارج النطـاق المنزلـي الضيـق. وبينمـا وجـد عـدد كبيـر مـن الأشـخاص أنَّ التحـدُّث عـن مشـاكلهم داخـل العائلـة كان كافيًـا لكي يواجهوا التبعات الأليمة لفقدان القريب، ربما كان آخرون بحاجة إلى أشكال أخرى من المساعدة.

ومع أن الأفراد الذين جرت مقابلتهم لم يعبِّروا صراحة عن رغبتهم في الحصول على دعم نفسي أو نفسي اجتماعي، فقد أظهرت النتائج حاجة بعضهم إلى مثل هذا الدعم.

الضّائقة الماليّة

"ما إن اختفى والدي، حتى أصيبت والدتي بسكتة دماغية وظلّت في حالة غيبوبة طوال 20 يومًا. وتأثرت أوضاعنا واضطرّت أختي إلى إيجاد عمل لمساعدة العائلة وتركت أختي وأخي الدراسة لأننا لم نكن قادرين على سداد تكاليف المدارس. ولم يكن لدينا أي سند لأننا فقدنا معيل العائلة الوحيد وحتى المؤسسة التي كان يعمل فيها والدي ظلت تمنحنا معاشه الشهري لسنة واحدة ثم توقفت عن السداد."

(ابنة أحد المفقودين)

"يملك زوجي أرضًا ولكن إذا أردنا بيعها أو استعمالها علينا سداد الضرائب المستحقة وإصدار شهادة وفاة. والبيت الذي نعيش فيه هو أيضًا باسم زوجي وعلينا أيضًا سداد الضرائب. وإذا لم نسددها، يمكن أن تقرر الحكومة مصادرة البيت ونصبح بلا سقف يحمينا. ولم نتمكن حتى الآن من حل المشكلة لأن المعاملات مكلفة وتتطلب إصدار شهادة وفاة وأنا أرفض ذلك."

(زوجة أحد المفقودين)

مع إن تحديد المشاكل الاقتصادية التي تواجهها العائلات بعد مرور سنوات طويلة على اختفاء القريب يظل أمراً صعبًا ضمن الإطار المحدود لهذا التقييم، قال 78% من الذين أجريت معهم مقابلات أنهم عانوا من مشاكل مالية بسبب اختفاء قريبهم، وقالوا إن هذا الاختفاء تسبَّب بصعوبات مالية واضحة وهامة برزت بشكل رئيسي على مستويين اثنين:

تفقد أولاً العائلة في غالب الأحيان معيلها، ذلك أن نصف عدد المفقودين الذين شمل هذا التقييم عائلاتهم كانوا متزوجين وقت اختفائهم، وتركوا وراءهم زوجة وثلاثة إلى أربعة أولاد.

ثانياً، كان 72% من المفقودين المشمولين في هذه الدراسة يعملون وقت اختفائهم، فكانت لديهم وظيفة أو يملكون مشروعًا تجاريًا خاصًا أو كانوا مياومين، وكان 10% فقط منهم عاطلين عن العمل و16% كانوا طلاّبًا.

ومن بين 254 عائلة قالت إن لديها مشاكل مالية، أكَّد ثلثان منها أن سبب تلك المشاكل كان فقدان المعيل وبالتالي انخفاض الدخل المتوفر مما كان يحول، على سبيل المثال، دون توفير أفضل الفرص لتعليم الأولاد. فكان يضطر أحد الأولاد أو أكثر من ولد واحد إلى التوقف عن الدراسة والبحث عن عمل للمساهمة في مدخول الأسرة. وكان يعني ذلك على المدى الطويل حصول هذا الولد على دخل أدنى مما كان من الممكن تحصيله لو استطاع متابعة تعليمه. علاوة على ذلك، فإن اختفاء معيل محتمل خاصة الابن الذي كان من الممكن أن يساعد والديه في أيام الشيخوخة يؤثر أيضًا اليوم على الوضع الاقتصادي للأهل.

كذلك فإنّ البحث عن شخص مفقود يكبِّد عائلته مبالغ باهظة كان يمكن إنفاقها لتلبية حاجات أخرى مهمة. وأكَّد نصف عدد العائلات أن مبالغ مالية ضخمة أُنفقت للتنقل في بحثها من مكان إلى آخر والسداد لأشخاص كانوا يَعِدون بإعطاء معلومات مفصَّلة عن مصير المفقود ومكان وجوده أو يعرضون للبيع أشياء شخصية يدَّعون أنها تخصه. وبذلك كانت تصبح العائلة عاجزة عن سداد مصاريف أخرى ضرورية.

وثمَّة عبء مالي آخر يتعلق بالضرائب على أملاك الأشخاص المفقودين التي استمرَّت في السريان بعد الاختفاء وحتى قبل أن تتمكن العائلة من تسجيلها باسم الأفراد الآخرين. ونظرًا إلى طول مدة إنجاز المعاملات المطلوبة، كانت عائلة المفقود ترث مبالغ ضخمة مستحقة على ضرائب الأملاك المتراكم، واضطر البعض إلى بيع أملاك أخرى أو اقتراض المال لسداد هذه الضرائب. ولا يزال الذين لم يتمكنوا من سدادها عاجزين عن حل المشكلة.

وكما ذكر أعلاه، يعيش أفراد عائلة المفقود معاناة نفسية، ولكنهم يعانون أيضًا من عللٍ جسديّة قال الكثيرون أنها ترتبط مباشرة بالصدمة التي أعقبت اختفاء القريب. وتضع هذه المشاكل الصحية ضغطًا إضافيًا على ميزانية العائلة وكانت هذه القضية الأولى التي ذكرها أفراد العائلات عندما سُئلوا عن كيفية تدبير أمورهم لتلبية الحاجات الأساسية للعائلة مثل السكن والطعام والماء والتعليم والرعاية الصحية. وذكر ثلثا الذين أجريت معهم المقابلات الرعاية الصحية باعتبارها الحاجة الاقتصادية الأهم، قبل الطعام والماء أو أي شيء آخر (كان أكثر من نصف عددهم يتلقون علاجًا طبيًا منتظمًا). وذكرها كذلك حتى الذين يستفيدون من تأمين صحيّ، ومن المتوقّع أن تزداد الاحتياجات الطبية في المستقبل كلما تقدم أفراد العائلة بالسن.

التوصيات الأساسية المُقدّمة إلى السّلطات اللّبنانيّة

سعيًا إلى وضع حدٍّ لحالة عدم اليقين التي تعيشها عائلات المفقودين وتماشيًا مع التزامات لبنان بموجب القانون الدولي الإنساني وقانون حقوق الإنسان، تحثُّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر السلطات على اتخاذ الإجراءات اللازمة للحيلولة دون اختفاء الأشخاص في حالات النزاعات المسلحة أو حالات العنف الأخرى، والكشف عن مصير وأماكن وجود الأشخاص الذين اختفوا أثناء النزاعات المسلحة التي جرت منذ العام 1975، والاهتمام بتلبية حاجات أفراد عائلاتهم وتزويدهم بالدعم اللازم.

إنّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر تشجّع السلطات اللبنانية على النظر في المصادقة على الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الاختفاء القسري وإدراج أحكامها في القوانين الوطنية.

إنشاء آلية تعنى بكشف مصير الأشخاص المفقودين ومكان وجودهم

إنَّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر تساند الحكومة اللبنانية في جهودها الرامية إلى إنشاء آلية تُعْنى بالبحث عن الأشخاص المفقودين، وكشف مصيرهم ومكان وجودهم، وإبلاغ ذويهم بالمعلومات التي تمَّ جمعها. وتوصي اللجنة الدولية بضرورة عمل مثل هذه الآلية لتحقيق المصلحة الفضلى لعائلات المفقودين وأن تتضمَّن العناصر التالية:

- ينبغي أن تُحدَّد للآلية مهام واضحة تتمركز حول الهدف الإنساني المتمثّل في تزويد عائلات المفقودين بإجابات عن مصير أقاربهم ومكان وجودهم.
- ينبغي أن تكون هذه المهمة غير تمييزية. فعلى الآلية أن تكشف مصير وأماكن وجود كل الذين أصبحوا في عداد المفقودين بسبب النزاعات المسلحة – الدولية منها وغير الدولية - وحالات العنف الأخرى.

  وسعيًا إلى ضمان تلبية حاجة جميع العائلات إلى معرفة الحقيقة، تدعو اللجنة الدولية إلى استعمال المصطلح الأوسع نطاقًا وهو "الأشخاص المفقودون"، فهذا المصطلح يشمل الأشخاص المخفيّين قسرًا والأشخاص الذين "فُقِدوا أثناء القتال" (أفراد من القوات المسلحة ومقاتلون من مجموعات معارضة لا تملك عائلاتهم أخبارًا عنهم)، كما يشمل كلّ الذين أُفيد عن اختفائهم في علاقة مباشرة بنزاع مسلح أو حالة عنف أخرى.
- ينبغي أن تضع الآلية قائمة مركزية وشاملة بأسماء جميع الأشخاص المفقودين بسبب النزاعات المسلحة – الدولية منها وغير الدولية – أو حالات العنف الأخرى، بناءً على معلومات تُجمع من مصادر مختلفة مثل السجلات الرسمية، والعائلات وجمعيات عائلات المفقودين، ومنظمات غير حكومية.
- ينبغي أن تبقى المعلومات التي تجمعها الآلية سرّية وألاَّ تُستخدم لغير الغرض الذي جُمعت من أجله؛ أي الكشف عن مصير الأشخاص المفقودين ومكان وجودهم. ويجب معالجة وتحليل البيانات الشخصية التي تمَّ جمعها على نحوٍ يتماشى مع المبادئ المتفق عليها دوليًّا ذات الصلة بحماية البيانات الشخصية ومع القوانين الوطنية.

- ينبغي منح الآلية الموارد والصلاحيات اللازمة، فيجب أن تكون قادرة على تنسيق عمليات البحث عن المفقودين ودعمها والإشراف عليها، ومن ثم إبلاغ العائلات بما توصلت إليه.
- نبغي أن تمتلك الآلية المهارات والموارد اللازمة لجمع المعلومات عن مواقع الدفن، أي المقابر الفردية أو الجماعية التي قد يكون دُفن فيها رفات أشخاص مفقودين.
- ينبغي أن تضع الآلية استراتيجية شاملة للبحث عن الرفات واسترجاعه والتعرّف على هوية أصحابه استنادًا إلى أفضل الممارسات العلمية المكيّفة وفقًا للوضع، والتي تشمل الأحكام ذات الصلة المتعلقة بإعادة الرفات الذي تمَّ التعرُّف على هوية أصحابه إلى العائلات وتأمين الدفن الكريم للرفات الذي ظلَّ مجهول الهوية أو لم يطالب به أحد.
- ينبغي أيضًا للآلية إقامة حوار مع سلطات البلدان الأخرى المعنية من أجل البحث عن الأشخاص الذين يُفترض أنهم في بلد آخر.
- ينبغي للآلية تأمين الحوار المنتظم مع عائلات المفقودين والمبادرة في التعريف بأهدافها وعملها وإجراءاتها ونتائجها
- يُستحسن أن تُحدّد أيضًا للآلية مهمة مساندة عائلات الأشخاص المفقودين في تلبية احتياجاتها المختلفة كما تشير إليه التوصيات اللاّحقة.
- إنَّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر تساهم حاليًا في جمع البيانات "السابقة للاختفاء"، وحفظها. ويشمل ذلكَ التخطيط لجمع العيّنات المرجعية البيولوجية من الأقارب. ومن المتوقع أن يساعد ذلك على حفظ المعلومات التي قد تؤدي في نهاية المطاف إلى التعرُّف على الأشخاص المفقودين. وتعتبر للجنة الدولية أن تسليم المعلومات التي تم جمعها إلى هذه الآلية سيعتمد على تحقيق الشروط المذكورة أعلاه
- والمتعلقة بالمهمة غير التمييزية والإنسانية الموكلة إلى هذه الأخيرة ويضمن بذلك عملها دائمًا لخدمة المصلحة الفضلى لعائلات المفقودين.

اتّخاذ التّدابير اللاّزمة لمعالجة المشاكل الإداريّة والقانونيّة

- ينبغي للسلطات تحديد وضع قانوني واضح ومعترف به للأشخاص المفقودين يسمح لعائلاتهم بمعالجة أي قضية ناجمة عن غياب ذويها أي الحصول على المساعدات الاجتماعية والتمتع بالحقوق المتعلقة بالملكية، والإرث، والوضع العائلي، والرعاية الصحية، والتعليم الخ.. بدون الاضطرار إلى إعلان الشخص المفقود ميتًا. ويُمكن إصدار "شهادة غياب" تحدِّد الوضع القانوني للشخص المفقود ويكون لها الصفة القانونية نفسها كشهادة الوفاة. ويجب أن تتمكن العائلة التي ترغب في ذلك من الحصول على الشهادة من خلال إجراءات بسيطة ومجانية (تنطبق أيضًا على أي موافقة قضائية مطلوبة، وعلى التحقيقات والإعلانات المنشورة في الصحف).
- ينبغي أن تتمكن العائلات من الحصول عبر السلطات المحلية (المخاتير مثلاً) على كل المعلومات والمساندة اللازمة لإصدار شهادة الغياب. ويجب أن تتأكد السلطات من أنّ الهيئات المدنية المحلية تعرف جيدًا تلك الإجراءات وفائدة شهادة الغياب مقارنة بشهادة الوفاة وتعطي التوجيهات للعائلات وفقًا لذلك.
- ينبغي النظر في إنشاء إدارة رسمية مركزية لتقديم المعلومات والدعم للعائلات. ويُمكن أن تتولّى تقديم النصح في المجالين الإداري والقانوني من أجل مساعدة العائلات على حل مشاكلها الإدارية والقانونية الناجمة عن اختفاء القريب، مثل الأمور المتعلقة بالأملاك (الإرث) والتقاعد، والضمان الاجتماعي، والزواج، إلخ.
- حالما تبدأ الآلية المعنية بعملها، ينبغي أن تصبح مثل هذه الإدارة المختصة بالإرشاد الإداري والقانوني جزءًا من الآلية.

التوصيات المُقدّمة إلى السّلطات اللّبنانيّة والجهات المعنيّة الأخرى

تتطلب التوصيات التالية التفهُّم والدعم الفاعل من جانب المجتمع المدني وكل الجهات المعنية لا سيّما جمعيات العائلات، والمنظمات غير الحكومية، والمنظمات الدولية المشاركة في برامج ترمي إلى مساعدة عائلات المفقودين فضلاً عن الجهات المانحة التي تموِّل هذه البرامج.

تأمين الدّعم النّفسي والنّفسي الاجتماعي

- ينبغي للسلطات الإقرار بأهمية تيسير حصول أفراد عائلات المفقودين على الرعاية النفسية والنفسية الاجتماعية وضمان تعريفها بمثل هذه الخدمات التي يمكن أن تؤمّن تقديمها مؤسسات حكومية متخصّصة و/أو هيئات أخرى.
- ينبغي للسلطات ولجميع المنظمات المعنيّة أن تضمن الحصول بسهولة على تلك الخدمات للأقارب الذين يرغبون في ذلك.
- يُستحسن أن تُنشئ السلطات شبكة دعم نفسي اجتماعي تنظمها وتديرها هيئات حكومية محلية، أو جمعيات العائلات، أو منظمات غير حكومية أو منظمات دولية.
- ينبغي للسلطات، بمساعدة منظمات المجتمع المدني، أن تضمن توفير خدمات الدعم النفسي المناسبة لأفراد العائلات الذين هم بحاجة إليها، ويمكن أن يتمثل هذا الدعم في علاج فردي أو عائلي أو شكل آخر من العلاج الجماعي، ولكن فعاليته تتعلق بمدى استناده إلى الفهم الحقيقي لحالة "عدم اليقين" التي تعيشها العائلات بالنسبة إلى مصير أقاربها.

تأمين الرّعاية الصّحيّة

- ينبغي للسلطات اللبنانية، بمساعدة منظمات المجتمع المدني، أن تكفل على الأقل استفادة جميع أفراد عائلات المفقودين من التأمين الصحي الذي يضمن لهم الحصول على خدمات الرعاية الصحية مجانًا.

الإقرار بالوضع الخاصّ لعائلات المفقودين

- تدعو اللجنة الدولية للصليب الأحمر السلطات اللبنانية والمجتمع اللبناني ككل إلى الاعتراف بمعاناة عائلات الأشخاص المفقودين التي طال أمدها، وبحق هذه العائلات في تلقي الأخبار والحصول على المساعدة.
- تُشجّع اللجنة الدولية للصليب الأحمر منظمات المجتمع المدني على مواصلة جهودها الرامية إلى دعم العائلات في المناسبات العامة والاستمرار في الدعوة إلى احترام حقوق العائلات والاستماع إلى مطالبها.
- تحثّ اللجنة الدولية للصليب الأحمر كل الجهات المعنية على دعم تنفيذ التوصيات المقدَّمة أعلاه لأنها تساهم جميعها في الاعتراف بالاحتياجات الخاصة لعائلات المفقودين وبكل ما عانته طوال عشرات السنين، فضلاً عن قيمتها العملية في تلبية الحاجات الرئيسية لهذه العائلات.

نتائج وتوصيات تقييم "لنعمل من أجل المفقودين" لاحتياجات العائلات - 2021

في العام 2021، بدأت جمعية "لنعمل من أجل المفقودين" سلسلة من الاستشاراتٍ رمَت إلى فهم آثار الإخفاء المختلفة على أفراد العائلة وإلى تقييم احتياجاتهم. كما رمَت الاستشارات إلى فهم احتياجات عائلات المفقودين والمخفيين وفهم توقّعاتهم من الهيئة الوطنية المُشكّلة حديثًا. وسوفَ يتمّ اقتراح التّوصيات حولَ جبر الضّرر في ضوءِ النّتائج المُحصّلة.

وبغيةَ تنظيمِ هذه الاستشارات، تعاقدت جمعية "لنعمل من أجل المفقودين" مع أربعة موظفين ميدانيين ليكونوا بمثابة المُنسّقينَ بالنّسبة إلى العائلات في مُختلف المجتمعات والمناطِق في لبنان. وقامَ هؤلاءِ بإجراء المقابلات، افتراضيًّا عبرَ الانترنت وحضوريًّا، مع أفراد عائلات المفقودين وجمعوا منهم معلوماتٍ حول احتياجاتهم وخصائصهم الاجتماعية والديموغرافية.

حقائق وأرقام

ضمّت الاستشارات 150 فردًا من عائلات مُختلفة الخصائص الاجتماعية والديموغرافية. فقد أجرَت جمعية "لنعمل من أجل المفقودين" المُقابلات مع مشاركينِ على صلة مباشرة أو غير مباشرة بالمفقودين. وكانَ أغلبُ المُشاركين في الاستشارات هم أشقاء المفقودين وبناتهم، وهذا ما يُظهرُه جليًّا الرّسم البياني أدناه:

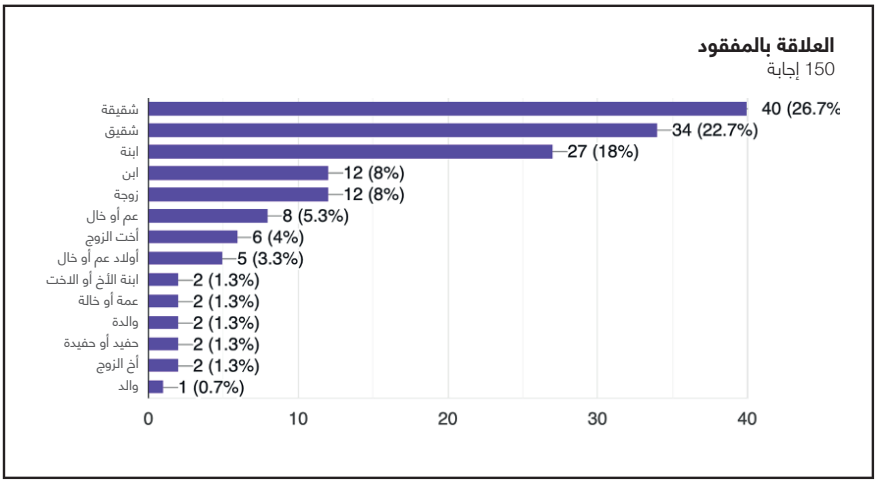

رسم بياني يوضح الصلة التي تربط بين الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات والشخص المفقود.

معظم العائلات كانَت من الجنسية اللبنانية (82%)، أمّا العائلات الباقية فكانت من الجنسيَتَيْن الفلسطينية والسورية.

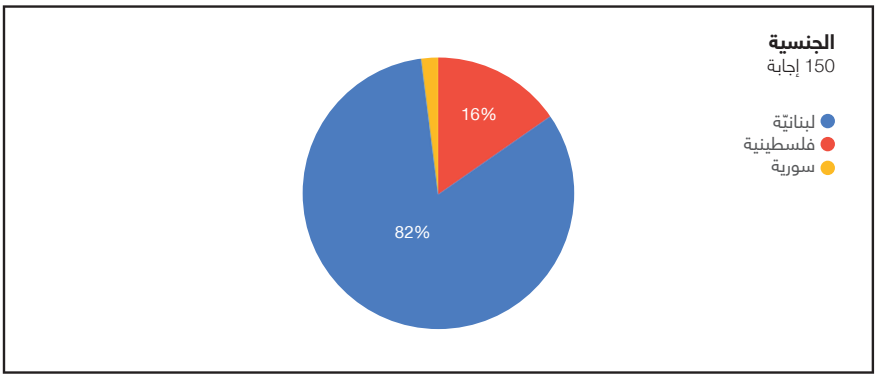

رسم بياني يوضح إلى أي جنسية كان ينتمي الأشخاص الذين شاركوا في المقابلات.

أغلبُ المشاركين في الاستشارات يتحدّرونَ من محافظات الجنوب والشمال وجبل لبنان.

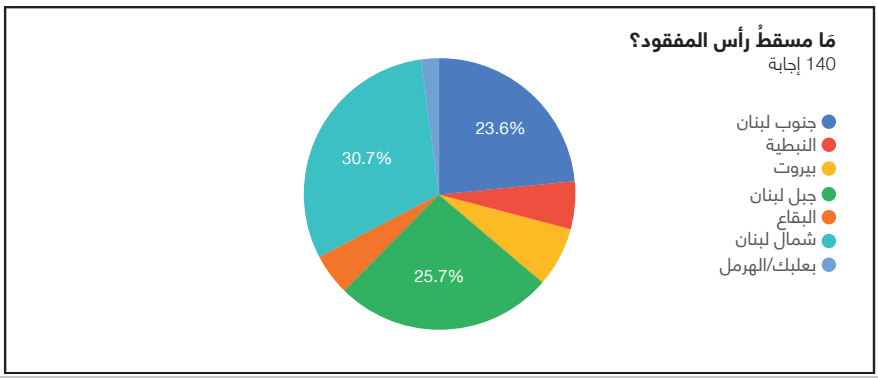

رسم بياني يحدد من أي منطقة ينحدر الشخص المفقود.

تبيّن أنّ معظم المخفيينَ كانوا مِن المدنيين (89%) بينما توزّعت النسبة المتبقية بين جنود في الجيش اللبناني أو مقاتلين ينتمون إلى إحدى المجموعات المسلحة التي كانت تحارب في ذاك الوقت. ومعظم عمليات الخطف وحالات الإخفاء وقعت في مناطق بيروت (37.3%)، وجبل لبنان (25.3%) وشمال لبنان (18.7%).

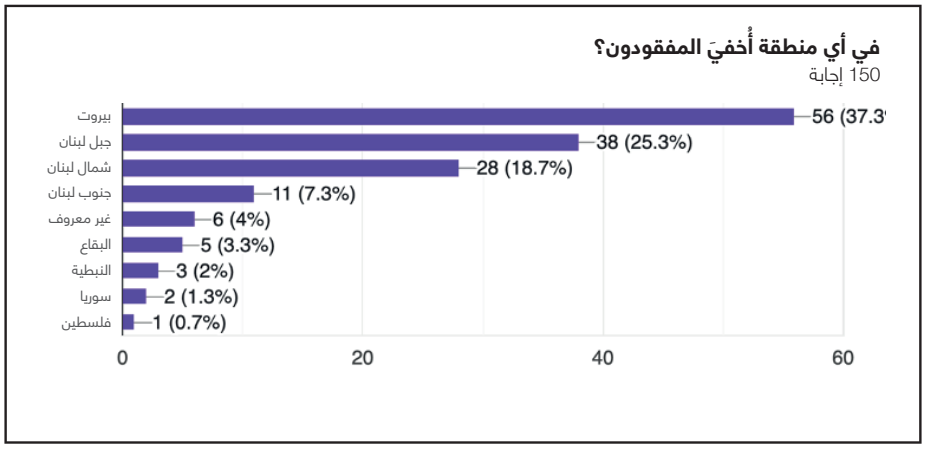

رسم بياني يظهر أين كانت تتم عمليات الخطف.`

وقع الإخفاء

كشفت الاستشارات أنَّ معاناة العائلات الكبرى تُعزَى إلى الصعوبات الاجتماعية، سواء أكانَت ضمنَ العائلة (72.7%) أو ضمنَ المجتمع (36.6%) وإلى الصعوبات المادية (24.6%). وقد أظهرَ التقييم أيضًا أنّ بعضَ العائلات لا تزال تعاني تحديات قانونية (24.6%).

الوقع على الأهل

ذكر أهل المفقودين كيفيّة تأثير إخفاء أحد أولادهم على أدوارهم الاجتماعية والعاطفية وعلى استمرارية العائلة ككُلّ. وقد أفاد الكثيرون بأنَّ أهاليهم وأشقاءَهم عانوا آلامًا جسدية وكآبةً نفسيّة وأعباءَ عاطفية، نتيجة الفقدان. هذا وقد وقعوا عرضةً للتّمييز الاجتماعي ولضغوط ماليّة كبيرة.

الوقع على الأبناء

اضطرّ بعض أطفالِ المفقودين لتركِ المدرسة من أجل العملِ لإعالةِ عائلاتهم، ما أدّى إلى تبدّلِ أدوارهم ضمنَ عائلاتهم. فيما أُدخِلَ آخرون إلى دور الأيتام أو خسروا كلّ مدخراتهم من أجلِ الدّفع لأشخاصٍ كانوا قد وعدوهم بالمساعدة في العثور على مفقوديهم. وأمست الحياة الأسريّة عصيبة، ملؤها الحُزن. وشكّلَ الشعور الدائم بعدمِ اليقين مصدرَ قلقٍ كبير وهو ما أدّى إلى إجهادٍ جسدي ونفسي على حدّ سواء. أمّا زوجات المفقودين فقد ناضلنَ من أجلِ تحمّل مسؤولية العائلة وحدهنّ. وكان من شأنِ حالتهنّ الاجتماعية المُبهمة أن عرّضتهنّ للنبذ المجتمعي والإذلالِ أو التحرش.

وقد عانَى أغلبُ المشاركينَ آلامَ الصّداع واضطراباتٍ في النّوم كما عانُوا العصبيّة والقلق المُفرِط حّتى في أتفهِ الأمور، بالإضافة إلى الإرهاق والتّعاسة. وقد أشارَ الكثير منهم إلى أنَّ الفقدان قرّبهم أكثرَ إلى أفرادٍ من عائلاتهم، كالأشقّاء مثلاً.

التّحديات القانونية

سلّطت هذه الاستشارات الضوءَ على التحديات القانونية التي تُساهم في مُفاقمةِ الصّعوبات الماديّة النّاجمة عن غيابِ الحالة القانونية المُسمّاة "مفقود". وقد سبّبت هذه الثّغرةُ القانونية مشاكلَ شتّى تتعلّقُ بحقوقِ الملكيّة والميراث، والمعاشات التقاعدية وحقوق الضّمان الاجتماعي، وحق الانتساب إلى اتحاد جديد، وحقوق الوالدين وإصدار وثائق الوفاة الخ. وقد صرّحَت نسبة 10% على الأقلّ من العائلات أنّه من أجلِ تخطّي هذه المشاكل، لا خيارَ أمامَها سوى إعلان وفاة أحبائها بغيةَ الحصولِ على وثيقة وفاة. وقد رفضَت غالبيةُ العائلات هذا الخيار، وهي لا تزالُ تُصارِعُ التّحديات القانونية آنفة الذكر.

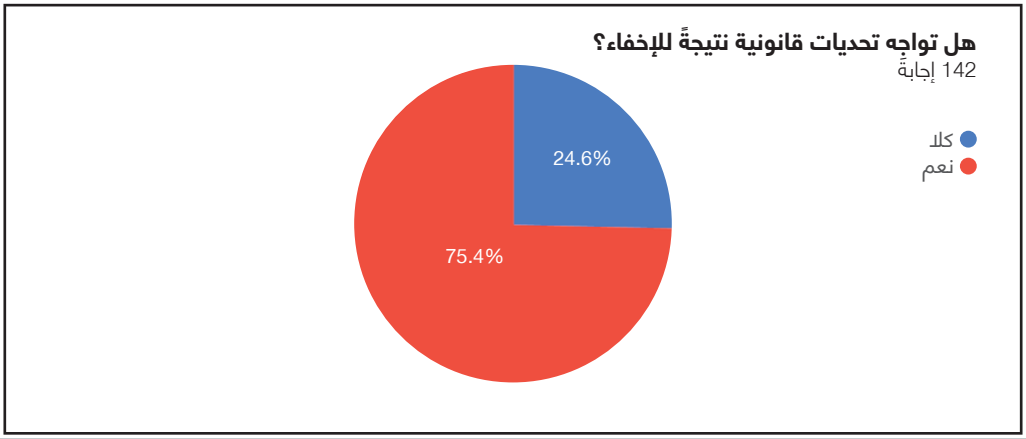

رسم بياني يظهر إذا ما كان أهالي المفقودين قد عانوا من مشاكل قانونية.

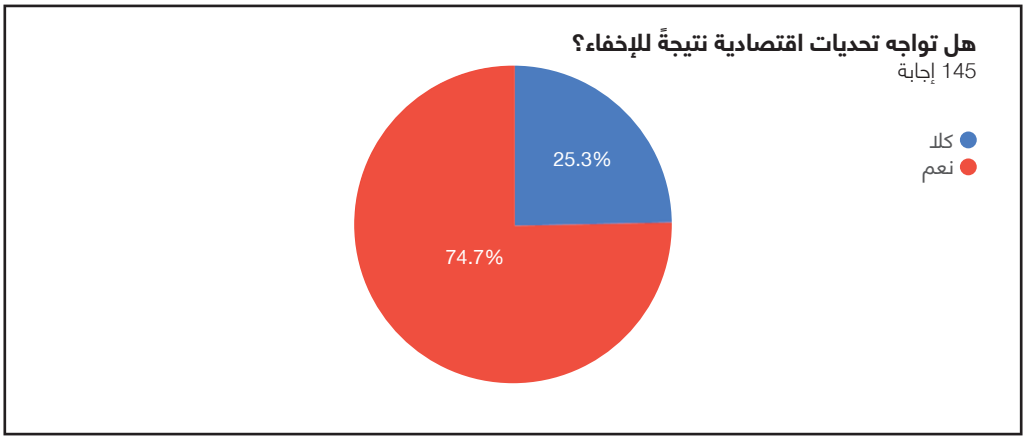

رسم بياني يظهر إذا ما كان أهالي المفقودين قد عانوا من صعوبات اقتصادية.

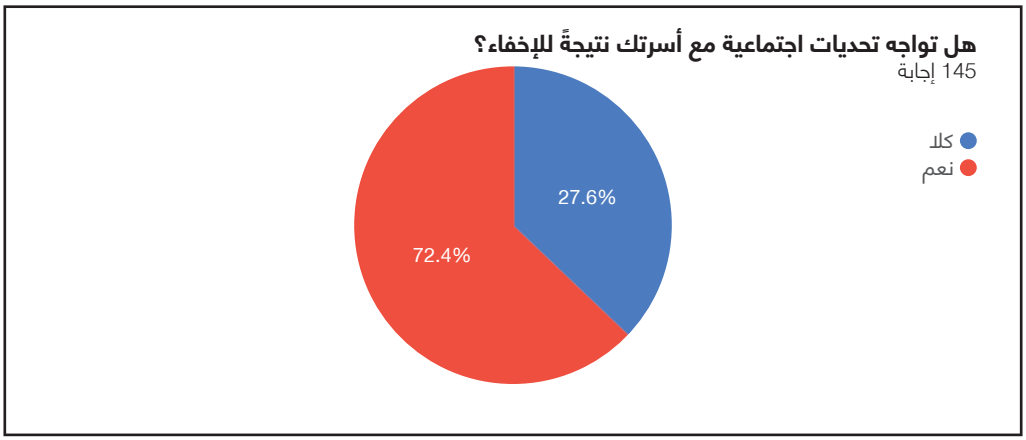

رسم بياني يظهر إذا ما كان أهالي المفقودين قد عانوا من صعوبات اجتماعية داخل العائلة.

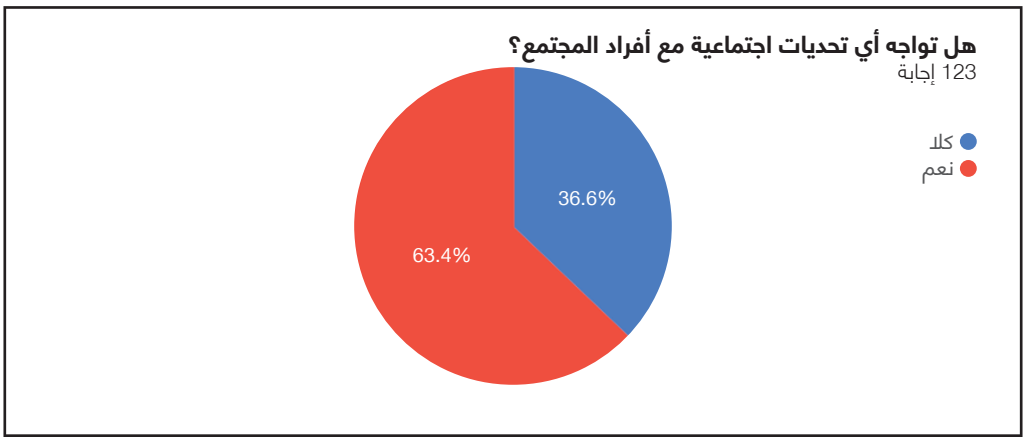

رسم بياني يظهر إذا ما كان أهالي المفقودين قد عانوا من صعوبات اجتماعية في البيئة المحيطة بهم.

احتياجات العائلات وتوقّعاتها المرجوّة من منظمات المجتمع المدني والهيئة الوطنية

أتاحت الاستشارات للعائلات التّعبيرَ عن احتياجاتها وتوقعاتها المرجوّة من منظمات المجتمع المدني والهيئة الوطنيّة على حدّ سواء. وقد لَفَتتَ الاستشارات الانتباهَ إلى الحقّ في المعرفة، ذلكَ أنَّ الغالبيّةَ العُظمَى من أفراد العائلات ما زالَت تعتبره أولويةً وحاجةً مُلحّة (87.1%). أمّا باقِي المُشاركينَ فقد توقّفوا عن البحث بعدَ أن فقدُوا الأملَ في التوصّل إلى نتائج بمفردهم أو بسبب مشاكلَ صحية حالَت دون مُتابعتهم ذلكَ.

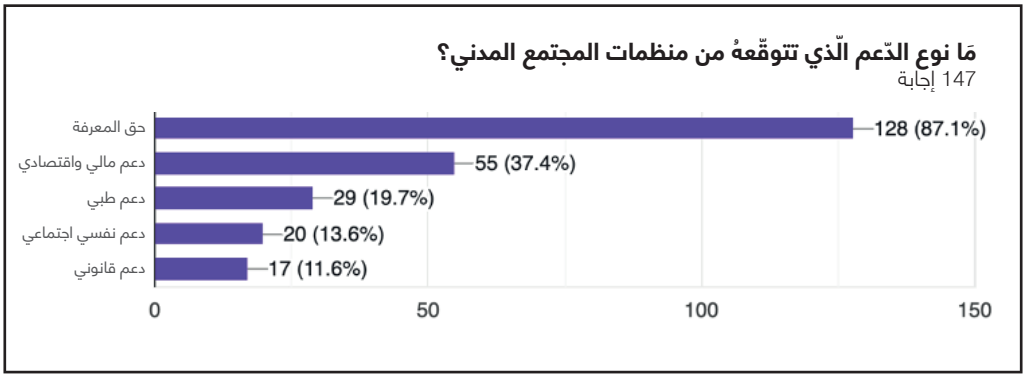

رسم بياني يظهر التوقعات المرجوة من منظمات المجتمع المدني لدى أهالي المفقودين.

ظلّ الأزماتِ الاقتصادية والسّياسية القائمة خلال فترة إجراء التّقييم. فقد خسرَ الكثير منهم وظائفهم أو أنّ معاشاتهم لم تعد كافية لتلبية احتياجاتهم الأساسيّة. أمّا بالنسبة إلى أطفال المفقودين، فالكثيرُ منهم لم يقدروا على إكمال تحصيلهم العلميّ، كما وُضِّحَ أعلاه، وهذا ما يجعلهم اليومَ أكثر عرضة لخسارة وظائفهم بسببِ الانهيار الاقتصادي.

وقد طلبَ الكثيرونَ الدّعمَ الطبيّ (42%)، نظراً لارتفاع أسعار الأدوية نتيجةَ رفع الدّعم عنها خلال فترة إجراء التّقييم، ولأنَّ تأمينها صعبٌ نتيجةَ تخزينها وشحّ عملة الدولار بسببِ أزمة العملة اللبنانية. ويصعبُ الأمر تحديدًا على الأشخاص الذين يعانونَ أمراضَ مزمنة مثل مرض السكري وأمراض القلب والسرطان.

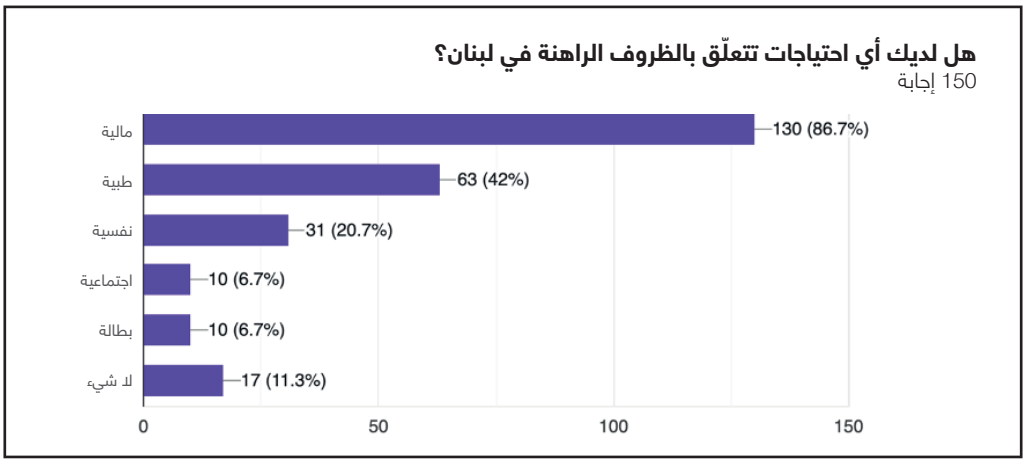

رسم بياني يوضح حاجات أهالي المفقودين في ظل الأزمة الاقتصادية والسياسية في لبنان.

كانت الاستشارات فُرصةً خوّلت العائلات أن تُبدي آراءها في مسألةِ تشكيل الهيئة الوطنيّة. فقد صرّحت نسبة 92% من العائلات أنّ تعيينَ أعضاء الهيئة أدخلَ السّرور إلى قلوبها ومنحها بصيصَ أمل. هذا وقد أعربَت نسبةٌ 65.2% من العائلات عن استعدادها تقديم الدّعم للهيئة، إن أُخِذَت بعضُ الشّروطِ في الاعتبار، على غرارِ الشّفافيّة وطبيعة السّياق (يُرجى الاطلاع على الرّسم البياني أدناه).

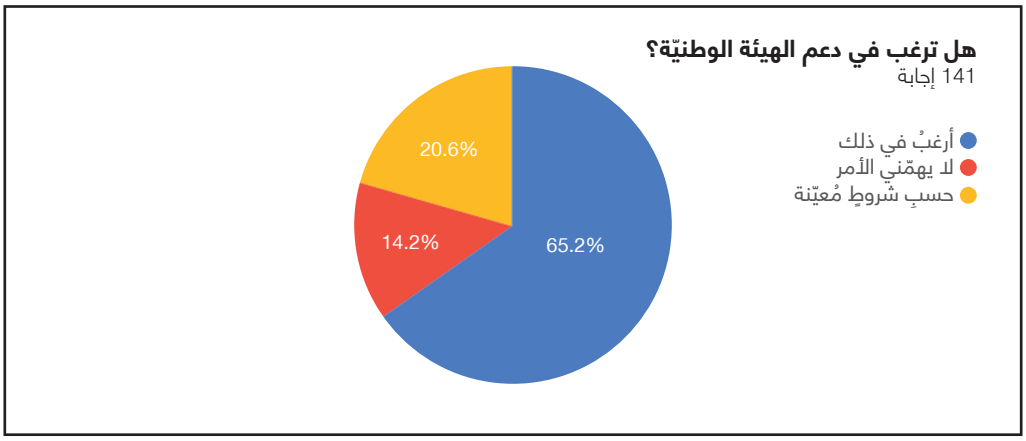

رسم بياني يوضح نسبة الأشخاص الذين أبدوا استعدادهم لتقديم الدعم للهيئة الوطنية بدون أو مع شروط.

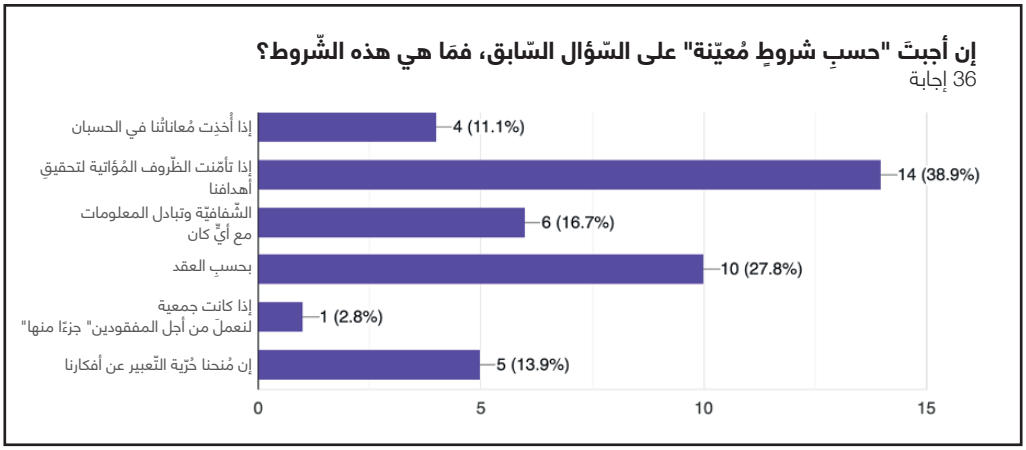

رسم بياني يوضح الشروط التي أعرب عنها المشاركين من أجل تقديم الدعم للهيئة الوطنية.

التوصيات

لِعائلات المفقودين والمخفيين قسرًا احتياجات عدّة تتطلّب استجابة شاملة من الدّولة ومنظّمات المجتمع الدّولي الدّاعمة. وتتضمن هذه الاحتياجات الحق في معرفة العائلات مصير أحبائهم وأماكنهم، والحاجة إلى تلقي الدعم الاقتصادي والنّفسي الاجتماعي، والحق في إحقاق العدالة وجبر الضّرر والحاجة إلى إقامةِ المراسم التأبينيّة.

إنّ التّدابيرَ الّتي ستّتخذها الهيئة الوطنيّة، فورَ سريانِ مفعولها، يجب أن تقومَ على فهمٍ واضحٍ لِمطالب العائلات واحتياجاتها، كما يجب أن تتكيَّف وكلّ سياقٍ على حدة. وينبغي أن تعتمدَ هذه التّدابير رؤيةً نفسيّة اجتماعيّة شاملة. ويعني ذلكَ أنَّ كلَّ تدبيرٍ منها يجبُ أن يُصمّمَ ويُوضع على نحوٍ يأخذُ في الاعتبار وقعها المحتمل على المستوى الفردي والعائلي والمجتمعي والاجتماعي، وذلك من أجل ضمانِ أن تكونَ كلّها جابرةً للضرر بطبيعتها بالنّسبةِ إلى الضحايا (المباشرينَ والعائلات) والمجتمع على حدّ سواء.

وهذه الرّؤية يجب أن يتبنّاها كُلٌّ من الأطراف المعنية والخبراء وجهات المجتمع المدني والجهات المؤسستيّة العاملة، في كلٍّ من المجالات المرتبطة بالملف (خبراء الطب الشرعي، محامون، أطباء نفسيون، عمال في الخدمة الاجتماعيّة، أطباء ومُتخصّصونَ في علم الجريمة...).

الحق في المعرفة

لِعائلات المفقودين والمخفيين قسرًا حقّ أساسي في معرفة ما حدث لأحبائهم، والحقّ في عودةِ هؤلاء أحرارًا إليها إذا كانوا على قيد الحياة أو في استعادة جثثهم أو رفاتهم في حال وفاتهم. فهذا الحقّ مكرّس في القانون الدولي. وقد استفاضَ "الفريق العامل بحالات الإخفاء القسري أو غير الطوعي" في تعريفِ الحقّ في المعرفة بأنّهُ الحقّ في معرفة مصائر المفقودين وأماكنهم، بما في ذلك ظروف الإخفاء وأسباب الوفاة وتحديد هوية الجاني (أو الجناة).

أمّا عملية البحث نفسها، فيُمكن أن تأتي بآثارٍ جابرة للضرر كما يُمكن أن تُفاقمَ الأذى الّذي يُعانيه أفرادُ العائلات. لذا، من المهمّ اتّباع مُقاربة تقلّل من خطرِ التّسبُّبِ بآثارٍ سلبية.

وعليه، فإنَّ عملية البحث تتطلّبُ اجراءاتٍ وخبرات ومعارفَ خاصّة من شأنها أن تُلبّي احتياجات الفئات الضّعيفة. وهي يجب أن تكون منظّمة ومُنسّقة على نحوٍ مُجدٍ ومُحكم من أجل تجنّب تكرارِ طلبِ المعلومات نفسها وخطرِ إعادة إيذاء أفراد العائلات مرّة أخرَى.

وفورَ إنجازِ الاجراءات الاستقصائيّة اللاّزمة، يجب أن يُسلَّمَ أفراد العائلات جثة المفقود ورفاته في ظروفٍ لائقة ووفقًا للأعراف الثقافية وعادات الضحايا.

الاحتياجات النّفسية والنفسيّة الاجتماعية

تعتبر عائلات المفقودين والمخفيين قسرًا ضعيفةً وتحتاجُ إلى الدّعم والحماية في كلِّ مرحلةٍ من مراحل عملية البحث المُختلفة.

لذا، ينبغي على المسؤولين عن عملية البحث، أن يأخذوا في الاعتبار المخاطر الصحية والنفسية الّتي قد تواجهها العائلات ومجتمعها خلال عملية البحث، لا سيّما تلك الناجمة مِن اكتشافِ مصير أحبائها أو الفشل في ذلك.

لهذا، يجب أن تضمَّ عملية البحث رعايةً نفسية ودعمًا نفسيًّا اجتماعيًّا من أجل تجنّبِ إعادة إحياء صدماتِ العائلات، على أن يكون ذلك وفق بروتوكولات واضحة.

أمّا تصميم عمليّة البحث، فَيجب أن يأخذ في الاعتبار أنواع الضّعف المختلفة ومُختلف أوجه التّمييز التي عاناها الضحايا (أفراد العائلات والمجتمعات). ويجبُ أن تُولي عمليّة البحث النّوعَ الاجتماعيّ اهتمامًا خاصًّا، وهو ما يُحتِّمُ فهمَ وقعِ الإخفاء على النساء مقارنةً بالرجال فهمًا عميقًا، وكذلكَ الوقع المتفاوِت النّاجم مِن عملية البحث. ويتطلّبُ ذلكَ مراعاة هذه المسألة والسياقات المحليّة وفهمَ وقع الإخفاء وعمليّة البحث على العائلات بطريقة شاملة.
إذًا، لا بدّ من اتباع مُقاربةٍ مُماثلة في كلِّ خطوةٍ من خطوات عملية البحث، إلى حين التّعرّف إلى هويّة المفقودين وتسليمهم إلى ذويهم.

الاحتياجات الاقتصاديّة والقانونيّة والإداريّة

تُعانِي عائلات المفقودين مشاكلَ اقتصاديّة واجتماعيّة جسيمة. يجب اتخاذ تدابير لمساعدتهم على التكيف مع عواقب الاختفاء.

وللضحايا الحقّ في جبرِ ضررٍ شاملٍ يتضمّن الحق بالتعويض الماليّ عن الأضرارِ الناجمة، والرّعاية الطّبيّة والنّفسية وإعادة التأهيل في حالِ حدوث أي شكل من أشكال الضرر الجسدي أو النفسي، بالإضافة إلى الدعم القانوني. ويجب أن يُمنحَ التعويض المالي مُقابلَ أيّ ضررٍ يُمكن تقديره اقتصاديًّا، كما يجب أن يكونَ مُلائمًا ومتناسبًا مع حجمِ المعاناة التي تكبّدتها العائلات (الأذى الجسدي أو النفسي، والفرص الضائعة، والخسائر المادية وخسارة المدخول، والضرر المعنوي، والتكاليف المُتكبّدة من أجلِ الحصول على المساعدة القانونية، والخدمات الطبية والخدمات النفسيّة الاجتماعيّة).

وتجدرُ الإشارة إلى أنَّ التعويض المالي لا يعدُو كونه نوعًا واحدًا من أنواعِ جبر الضّرر الماديّ الكثيرة المُمكن منحها للضحايا. ومن جُملةِ تلك الأنواع، استعادة الحقوق المدنيّة والسّياسيّة، أو شطب الأحكام الجنائية عن السّجل، أو إعادة التأهيل الجسديّ، أو منح حقّ الانتفاع مِن الأرض أو الرّعاية الصحيّة أو التعليم.

هذا ويجب أن تتّخذ خطواتٌ ملائمة فيما يتعلّق بالحالة القانونيّة الخاصّة بالمفقودين الّذين لم تُعرف بعد مصائرهم، ولا تزالُ، تبعًا لذلك، مصائر أقاربهم مُبهمة. ويجبُ أن تتلقّى عائلات المفقودين الدّعم في مجالات الرّعاية الاجتماعية والمسائل الماليّة والقضايا المُتعلّقة بنظام أحكام العائلة وحقوق الملكيّة، من دونِ أن تُضطرّ

لإعلانِ وفاة أحبائها.

ويجب أن تُراعيَ تدابير جبر الضّرر حالةَ كُلَّ ضحيّة على حدة، فالتّدبير الّذي يُعدُّ مُلائمًا في حالةٍ ما قد لا يصلح في حالةٍ أخرى، بل قد يعود بنتائجَ عكسيّة. فعلى سبيل المثال، تختلفُ تجربة النّساء لِلإخفاء اختلافًا جذريًّا عن تجربة الرّجال له. لذا، ينبغي أن تكون صيغُ جبر الضّرر ملائمة ومناسبة، وأن تُراعي النّوع الاجتماعي والثّقافة على حدّ سواء.

وكي تكون تدابير جبر الضّرر مُجديةً وقادرةً على مُعالجة عواقب الإخفاء، يجب إشراك العائلات في عمليّةِ تصميمها وتنفيذها.

الحاجة إلى العدالة

قد تطلُب العائلات محاسبة الأشخاص المسؤولين عن إخفاء أحبائها. فمعرفة الحقائق وتحديد المسؤولينَ عن الإخفاء ومقاضاتهم، هو شكلٌ من أشكالِ جبرِ الضرر.

إنّ حقّ ضحايا الإخفاء وأقاربهم في العدالة هو حقٌّ كرّسته الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الإخفاء القسري. وتنصّ الاتفاقيّة على أن تتّخذَ الدولة التدابير اللازمة لكي يُشكِّلَ الإخفاء القسري جريمةً في قانونها الجنائيّ ومعاقبة مرتكبيها.

لا يسري قانون التقادم[5] على جريمة الإخفاء القسري الّتي تعتبر جريمة مستمرة واعتداءً دائمًا على حقوق الإنسان، ما دامت مصائر المفقودين وأماكنهم مجهولة. وبالتالي، فإنَّ القيودَ الزّمنيّة لا تُصبح سارية إلاّ بعدَ توقّف الإخفاء، أي أن تُعرف مصائر الضحايا وأماكنهم.

الحاجة إلى الإقرار وإحياء الذكرى والشعائر

إنَّ إحدَى الصّعوباتِ الأساسية التي تواجهها عائلات المفقودين هي غياب الإقرار الرسميّ من السلطات والمجتمع بإخفاء أحبائها، بالإضافة إلى الإقرارِ بالمعاناة الّتي تكبّدتها. هذا وتحتاجُ العائلات إلى أن تُعمّمَ ذكرى المفقودين وتُكرّمها.

لذا، فإنَّ الأفعال الرّمزيّة، مثل الاعتذار العلني وإقامة النصب التذكارية وإحياء الذّكرى، قد تكون مفيدةً وشافيةً وذات معنى، على غرارِ جبر الضّرر الماديّ.

وعليه، يجبُ أن تُبنى أيُّ مبادرةٍ من مُبادرات تخليد الذكرى، على استشاراتٍ تُجرَى مع العائلات والمجتمعات المتضررة وكذلكَ على احترام كرامة المفقودين، ومعاناةِ أقاربهم كذلكَ الأمر.

وتجدرُ الإشارة إلى أنَّ النّصب التّذكاريّة الّتي تُقامُ إكرامًا للمفقودين يجبُ ألاّ تُكرِّسَ رسميًّا القبول بإعلان وفاتهم، بل أن تكون كتذكير للدولة بمسؤوليتها القاضية بكشف الحقيقة حول مصائرهم وأماكنهم، وبالسعي إلى إحقاق العدالة.

الحاجة إلى المشاركة

يحقّ لعائلات المفقودين المشاركة في الجهود الرسميّة أو المُقادَة من المُجتمع المدني، والرّامية إلى البحث عن المفقودين، ويجب منح العائلات المجالَ لتدعمَ مهامَ الهيئة الوطنية للمفقودين والمخفيين قسرًا في لبنان. فقد أبدَت نسبة 65.2% من المشاركين رغبتها في مؤازرة الهيئة في تنفيذِ مهامها، وذلكَ وفقًا لِشروطٍ عدّة منها، توفير الشفافية وضمان حرية التعبير عن الرّأي. ويجبُ أن تحلَّ العائلات في طليعةِ الأعمال الآيلة إلى تقصّي الحقائق وبناء السلام كما يجب استشارتها طوالَ سير العمليّات.

هذا ويجب أن يضمنَ تصميم تدابير جبر الضّرر وآليّاته، مشاركةَ الأشخاص والمجتمعات المتضررة. ويجب أن تُؤخذ في الاعتبار لغاتهم وقيمهم وعاداتهم وحقّهم في المشاركة بالسّياسات التي تعنيهم.

-(5) قانون التقادم هو القانون الذي يحدّد الحدّ الأقصى من الوقت الذي لا يمكن بعده إنفاذ القانون من خلال إجراء قانوني أو لا يمكن معاقبة المجرمين.

وفي هذا الصدد، من المهم التّشجيع على إيجادِ فُسحاتٍ ومنصات ومجموعات تُخوِّلُ أفراد العائلات الانتظام فيما بينهم، وتمنحهم الشّعور بالقّوة وتُتيح لهم تبادل المعلومات والآراء من أجل الوصول إلى قراراتٍ صائبة. ولا بدّ من اعتماد تدابيرَ مختلفة من أجل ضمان مشاركةِ العائلات مشاركةً واسعةً في عملية البحث.

هذا ويجبُ ضمان تأمين حماية أفراد العائلات وحفظ أمنهم، بغضّ النّظر عن مستوى المشاركة الذّي اختارَه كُلٌّ منهم في عملية البحث. ويجب توفير كلّ الوسائل اللّازمة من أجل حمايةِ سلامتهم الجسدية وصونِ كرامتهم، وحفظ المعلومات التي جُمِعت خلال عملية البحث، من أدلّة وبراهين وشهادات ومعلومات شخصية سرية.

قد يكون جبر الضّرر عبارة عن استردادٍ ماليّ، أو فرديّ، أو جماعيّ، لحالةٍ أو حقّ ما. وبعدَ تقييم الاحتياجات الأخير الّذي أجرته اللّجنة الدوليّة للصليب الأحمر، أعلَت العائلات أصواتها في شأن احتياجاتها الشخصيّة، مثل العدالة وإعادة الاعتبار الاقتصادي، الّتي تتخطّى الحق في المعرفة. وبالنسبة إلى العديد من العائلات، وفي ظلّ الظروف الرّاهنة في البلاد، خرجَ تأمين الاحتياجات الأساسية عن سيطرتها. لكنَّ جبر الضّرر الماديّ، لا يعدُو كونه مُجرّدَ وجهةٍ واحدة من العملة؛ فعائلات المفقودين، خاصةً، والشّعب اللّبناني عمومًا، يحتاجونَ إلى إعادة اعتبارٍ رمزيّ تعويضًا عن المظالم المُرتكبة إبَّان الحرب اللبنانية. ومن الأمثلة على إعادة الاعتبار الرّمزيّ، الاعتذار العلنيّ، وضماناتُ عدم التّكرار، وإقامة النّصب التذكاريّة، وتنظيم احتفالات تخليد الذّكرى وغير ذلك.

الفصل الثالث: الفقدان الغامض: مسارٌ زمنيّ نفسيّ اجتماعيّ وتجارب يتشاركُها أقارب المخفيين

"نعم، إنّ الفقدان الغامض صادم، لأنّه مؤلم ومُشلٌّ للحركة وغير مفهومٍ، فَيكبحُ التّأقلم. [...] كونهِ تجربةً مؤلمةً تفوق توقّعات الإنسان الطّبيعيّة.
ونظرًا إلى أنّه ما مِن طقوس دينية أو اجتماعية تتعاملُ مع هذه الخسائر، يبقى الناس عالقين وحدهم في دوامةِ الجهلِ، دونما أي شكلٍ من أشكالِ الدّعم المُعتادَة للمواساةِ في الحزن والمضي في الحياة."
بولين بوس، 2009

إنّ فقدانَ عزيزٍ لحدثٌ نادر ٌوعميق، إذ لا يَختبرُ مأساةً كهذه إلّا قلّة قليلة. يخلق الغياب المفاجئ وغير المبرّر في كثير من الأحيان شعورًا دائمًا بعدم اليقين والفقدان في نفس من فَقَدَ عزيزٍ، مما يُدخله في حالةٍ من العُزلة العاطفية. ويصعبُ على مَن لم يمرّ بهذه التّجربة، أن يفهمها، لذا، فمِن المهم الاستفاضة في تعريفها وشرحِ تجارب العائلات شرحًا مفصلاً لما تحمله من تعقيداتٍ والتباس.

يهدف هذا الفصل إلى وصف التجربة متعددة الأوجه التي تمر بها هذه العائلات، إذ يتناول معاناتها العاطفية والنفسية والاجتماعية من زوايا مختلفة. ويُعدُّ فهم هذه الجوانب أمرًا ضروريًا لتمكين المهنيين المختصين من تقديم الدعم المناسب وضمان الإقرار بتجارب العائلات وتصديقها على مدار بحثهم الطويل والأليم عن الإجابات.

التعمق في مفهوم الفقدان الغامض

غالبًا ما يخلط البعضُ بين تجربة العائلات مع الفقدان وما يُعرَف "بالحزن المزمن" أو "الحزن المُجمَّد"، وهو ما يوحي بعجزٍ عن البدء بمرحلة الحزن. إلّا أنّ غياب الإجابات عن مصائر المفقودين وعدم الجزمِ في شأنها، يجعلان الإقرارَ الفعليّ بالفقدان أمرًا مستحيلاً. ويخلق عدم الحسم هذا صراعًا عاطفيًا فريدًا، مما يمنع مرحلة الحزن الطبيعية من أخذ مجراها. فإنها حالةٌ من الحزن المعلّق، حيث يُبقي أملُ الوصول إلى خاتمةٍ العائلات في دوّامةٍ عاطفية من الانتظار.

ولعلَّ الصّيغة الّتي تصفُ حالة الغموض هذه أدقَّ وصفٍ مُمكن هي "الفقدان الغامض" وتعني "الفقدان الذي يبقى مُبهمًا وبلا حلّ. فلا ختامَ له ولا نهاية لأنّ الفقدانَ مُستمر." (بوس وغرينبرغ، 1984).

الدكتورة بولين بوس هي المُنظّرةُ الّتي حدّدت تجربة الفقدان الغامض، في معرضِ عملها مع عائلات الجنود الأمريكيين[6] الّذينَ فُقِدُوا أثناءَ أدائهم واجبهم خلالَ سبعينات القرن المُنصرم، وهي الّتي أطلَقت المُصطلحَ أوّلَ مرّةٍ في العام 1984.

وقد أتَت بولين على تحديد نَوعين من الفقدان الغامض:

- **الغيابُ الجسدي والحضور النفسي**، حيث يُعوّضُ الحضور النّفسي عن الغياب الجسدي نتيجةَ الإخفاء الفُجائي والمُباغِت الّذي يُمكن أن يُعزَى إلى أسبابٍ متعدّدة منها الهجرة والخطف والإخفاء القسري وغير ذلك.
- **الغيابُ النفسي والحضور الجسدي**، حيث أن يكون الشّخص غير حاضرٍ نفسيًّا، على الرغم من وجودِهِ جسديًّا، وذلكَ بسببِ إصابتهِ بأمراضٍ عصبيةٍ مثل الخرف، أو تعرّضه لإصاباتٍ في الدّماغ، أو لسكتةٍ دماغيّة، أو دخوله في غيبوبة أو إدمانه المخدرات.

-(6) بوس،ب،غرينبيرغ ج، غموض حدود الأسريّة: متغير جديد في نظرية ضغوط الأسريّة. عمليّة أسريّة، 23 (4)، 535-546.

إنَّ تركيزَنا في هذا الدليل سيُصبُّ على النّوع الأوّل من الفقدان الغامض، نظرًا إلى كونه النّوعَ المُؤثِّرَ في عائلات المفقودين.

فيما يلي، سيُعرضُ سيناريو افتراضيّ يُبيّنُ تجربةَ فقدانِ شخصٍ عزيزٍ. والسّيناريو هذا إنّما هو عبارة عن توليفةٍ مِن قصصِ أقارب للمفقودين الّتي جُمعت على مدى سنواتٍ طِوال أُعِدَّت خلالها تقاريرَ عن مجموعات دعم[7] عائلات المفقودين. وهو، في الواقع، نتاجُ تمرينَيْن علاجين مختلفين:

أوّلهما، لُعبة الإوزّة (وأصله الإنكليزي "Game of the Goose") هو تمرينٌ علاجيٌّ منهجيٌّ مصممَ لمساعدة أعضاء الفرق، بما في ذلك أعضاء فرق الدعم والعائلات، على التّوصّل إلى فهم مشترك للتجارب المتعلقة بحدثٍ صادمٍ، مثلَ الإخفاء. ويتعاون المشاركون في تحديدِ المراحل المختلفة للإخفاء، وتخصيص عنوانٍ ورمزٍ لكلٍ منها. ويسمّي أعضاء الفريق المرحلة المستقبلية المتوقعة على نحو جماعيّ، ما من شأنه أن يعزز التآلف والإقرار وتَشارُك الواقع نفسه، وذلك بمعالجتهم تأثير الحدث سويًا.

وثانيهما، هو تمرين تعرضي سردي يُسمّى مسارًا زمنيًّا سرديًّا، يُشبهُ تمرينَ لعبة الإوزّة، فَيقومُ كُلُّ فردٍ من أفرادِ مجموعةٍ ما بوضعِ مسارٍ زمنيّ يسلّطُ فيه الضوء على الوقائع المهمة التي حصلت في حياتِه منذ وقوعِ الإخفاء، مع وصفُ العوائق ولحظاتِ النّموّ. ويُخصّصُ الفردُ مساحةً في المسارِ الزّمني للمستقبل حيث يُعكِفُ على التفكير في الأدوات وآليّات التّأقلم الّتي سيستخدمها من ماضيه للتّعامل مع الغموض وعدم اليقين المستمر بشأن مصير أحبائه. يساعد هذا التّمرين المشاركين في معالجة صدماتهم ويقوّي شعورهم بالقدرة على التّعامل مع المستقبل.

لكلِّ فردٍ طريقته الخاصّة في اختبارِ الإخفاء، وبالتالي وصفه الخاص لهذه التجربة، حسب ما يعيشه في حياته من تجارب شخصية تحدّد كيفية معالجته وتفسيره للحدث. لذا، فالتجارب التي يشاركها الأفراد عن طريق السّرد لا يمكن تعميمها بشكل شامل، بل هي ذات طابع شخصي إلى حدٍّ كبير وتعكس وجهات نظر الفرد. وعليه، فإنّ السّرد يُعدّ أداةً فعّالة لتوضيح التأثير العميق والبعيد المدى للإخفاء على الأفراد والعائلات والمجتمع. كما يقدّم رؤىً قيّمة حول تعقيد التجربة ويُعدّ وسيلةً اختياريةً في هذا الدليل.

في هذه القصّة، المفقودُ هو رجل راشد (اسمه وليد) وهو معيلُ عائلته، حالُه كحالِ أغلب المفقودين في الحرب اللبنانية. وتُجدِي القصة نفعَها في تِبيانِ جوانِب الإخفاء الآتي تعدادُها:

1. آثار الإخفاء على الصّعيد الفردي والعائلي والمجتمعي.
2. مسار زمني يصف تطوّر الفقدان الغامض.
3. التجارب الفريدة لأفراد الأسرة بناءً على أدوارهم داخل العائلة، مع التركيز بشكل خاص على وجهات نظر الوالدين والأشقاء والأزواج.

"خرجَ بلا وداع" – قصّة شخص مفقود

كانَ زوجان شابّان يُناضلانِ من أجلِ كسبِ لقمة العيشِ وتربيةِ أطفالهما الثّلاثة، في بلدٍ ينزلقُ رويدًا رويدًا إلى الحرب. وكانت الزوجةُ (نهلة) كثيرة الحلم بالمستقبلِ، لِتقوَى على تحمّلِ معاناتها المالية والعائلية الّتي فاقمتها أوضاعُ البلادِ سوءًا. وكثيرًا ما كانَ يشغلُ بالها التّفكير بأن يكبرَ أطفالها الثّلاثة وتتقاعدَ ووليد وينتقلون إلى العيش في ضواحي المدينة. لم تكن المنطقة الّتي يقطنون فيها قريبة من الاشتباكات المسلحة، لكنّ نهلة ووليد لم يتوقّفا عن التّحسّب لِمخاطرِ الخروج من المنزل.

وفي ليلةٍ كأيّ ليلةٍ أخرى، دنَت إليهم الاشتباكات، فسمعوا، لأول مرةٍ، إطلاق النار على مسافةٍ قريبة. تَردّدَ الزوجان في حسم قرارِهما بينَ مُلازمة مكانهما أو حزمِ أمتعتهما واللّوذ بالفرار. ثمّ قررا اللّجوءَ إلى منزل أقاربهما

(7)- جرت جمعية لنعمل من أجل المفقودين جلسات جماعية لتقديم الدعم النفسي والاجتماعي للعائلات حتّى تتمكنَ من استيعابِ الغموض، وقد تمّت الاستعانة بهذه التقارير من أجلِ تقديم أمثلة حيّة في هذا الدّليل.

في بلدةٍ مجاورة. فحزما أغراضهما الأساسيّة وركبوا جميعًا السّيارةَ، مُتّجهينَ إلى حيثُ الأمان. ولمّا اقتربوا مِن حدود البلدة، وقعوا في حاجزٍ نُصِبَ وسطَ الطريق؛ فسألهم المسلحون عن هوياتهم. وما إن فرغَ المسلحون مِن التّدقيق في الهويات، حتّى أخرجوا الزوج عُنوةً من السيارة. أصابَ نهلة ذعرٌ شديد، لكنَّها أُخبِرَت أنَّ زوجها سيعود إلى المنزل بعد إجراءاتِ تحقيقٍ عاديّة، وطُلِبَ إليها أن تمضي في طريقها. فَجادَلت المسلّحين، لكنّهم سرعانَ ما أظهروا عدائيّتهم ووجّهوا فوهاتِ بنادقهم نحو أطفالها وهم ينهالونَ عليها بالصّراخ.

خافَت الزّوجة على أطفالها، فقرّرت إيصالهم إلى مكانٍ آمنٍ والرجوع من أجل زوجها. وبعدَ أن أوصلَت أطفالها، عادَت أدراجها تبحثُ عن الحاجز، فلم تجد له أثرًا. عندئذٍ، أدركت أنّها لا تملك أي وسيلة تمكّنها التواصل مع المسلحين أو مع زوجها.

أبقَت نهلة أطفالها في منزل أقاربها، وانطلَقت وعائلة وليد ببحثٍ بائسٍ عنه في المستشفيات والسجون والمخافر ومراكز الصليب الأحمر، حتّى وصلَت أخيرًا إلى مقرّ الميليشيا المسيطرة على المنطقة. فقابَلَت القائد الّذي أخبرها أنّ زوجها قد وقع، على الأغلبِ، ضحيّةَ إخفاءٍ قسري، وادّعى أنّه سيُجري بعضَ الاتصالات ليُحاول العثور عليه. لم تكن الزّوجة تقوَى على استيعابِ أو تقبّل أنَّ ذلكَ قد حدثَ فعلاً لحبيبها وليد. وبقيَ أفرادُ العائلة أشهرًا عدّة يبحثونَ عنه في كلّ مكان، وأحيانًا ما كانوا يُعرضون أنفسهم للخطر أو الإهانات أثناءَ زيارتهم بعضَ أماكن الحجز الخطرة. فهم أيضًا وقعوا ضحايا الاحتيال الّذي مارسَهُ عليهم أشخاصٌ ادّعوا معرفةَ مكان وليد ووعدوهم بإيصالِهم إليه مقابلَ مبالغ طائلة من المال.

وكانَت نهلة تشعر بالذّنب لإهمالها أطفالها، وبالعبء لِاتّكالِها على أقاربها في تكبّد مصاريفهم. وسرعانَ ما وجدت عملاً بموازاةِ تربيتها أطفالها الّذينَ أخفت عنهم، كذبًا، ما حدثَ لِوالدهم. وكُلّما مرّ الوقت، كبرَت الكذبة وكبرَ شوقها. وعلى الرغم من أنّ أفرادَ عائلة زوجها كانوا يدعمونها، انتابها أحيانًا شعورٌ باستيائِهم منها لأنّها لم تقم بأيّ مجهودٍ زائد ليلةَ خطفِه. أو لعلَّها تعكسُ عليهم شعورها بالذّنب بعدمِ بذلِ المزيد من الجهد. في الواقع، يتملّكُ الشّعور بالذّنب من العائلة بأسرها كُلّما تناولوا طعامًا أو خلدوا إلى النّوم. وبعد مضيّ أشهرٍ على الواقِعة، بدأ أفرادُ العائلة أيضًا يؤنّبونَ أنفسهم لأنّهم لم يعثروا على وليد بعد، وهذا ما حثّهم على المضيّ قدمًا بالبحث عنه كلَّ يومٍ، مُتعالينَ على تعبهم المُضني.

أمّا والدُ وليد، فقد دخلَ في دوامةٍ نفسيّة وأصبح يعاني مشاكلَ في القلبِ وأمراض مزمنة أخرى، فيما لازمت والدته المنزل، علّهُ يعود إليها، لا سيّما في الأيام الّتي اعتادَ أن يزورها فيها أو أن يأكلَ عندها. حتّى أنّها كانت تضعُ له طبقًا على طاولة الغداء في تلكَ الأيّام. وأمّا أشقاؤه، فيعيشونَ في طيفِ أخيهم وغيابه، فأمّهم لا حديثَ لها عن غيرهِ وهم يخجلون من مشاعرهم المتناقضة[8] التي تنتابهم تجاهه.

أفراد العائلة جميعهم في حالةِ ضياعٍ، فهم غير قادرين على تقبّل ما حدث لِعزيزهم، لكنَّ البحثَ الحثيث لا يزال مستمرًا منذ سنواتٍ طوال. لقد سلبتْهُم هذه الواقعةُ جوانبَ عدّة من حياتهم، بما في ذلكَ السّلامة الصحيّة والرّفاه المالي والمُشاركة بطقوس عائلتهم، وقدرتهم على الاستمتاع. قد يظن البعض أنهم مكتئبون، لكن الحقيقة أنهم ليسوا كذلك، فالحالة التي يعيشونها هي نتيجة لحدث مستمر لا يزال يؤثر فيهم ويثير قلقهم.

مرّت سنواتٌ معدودة، وانغمسَ جميع أفراد العائلة في البحث الحثيث، حتّى ما عادَوا يرتاحون للحديث مع الغرباءِ عن مفقودِيهم، لأنّهم غالبًا ما لا يلقونَ التّفهّمَ المناسب، ويُغضبِهم مَن ينصحهم بعدمِ فقدان الأمل بعودته أو يترحّم عليه. وهم يشعرونَ أيضًا بالعزلة التّامة عن المجتمع بسببِ انقطاعهم عمّا يحدثُ في الحياة اليوميّة وعمّا يمرُّ به الآخرون.

أمّا نهلة فتكدُّ كي تُربّي أطفالها التربيةَ الّتي أرادتها لهم هي ووليد، لكنّها لم تعد تقوَى على مواكبة الظروف، فوجدت نفسها تضطرّ إلى التّضحيةِ بتعليم ابنها البِكر من أجل تأمينِ سقفٍ يحتمونَ به. وهي أيضًا تنتابُها مشاعرُ

-(6) بوس،ب،غرينبيرغ ج، غموض حدود الأسريّة: متغير جديد في نظرية ضغوط الأسريّة. عمليّة أسريّة، 23 (4)، 535-546.

متناقضة تجاهَ زوجها الّذي تركها تربي الأولاد وحيدةً، لكنّها سرعانَ ما تعي هذا الغضبَ ولا تتقبَّله فتبحثُ عن مُتنفّسٍ في مكانٍ آخر.

توصّل الأطفال تدريجيًّا إلى فهمِ ما حلَّ بِوالدهم، وقد علّمتهم التجربة أنَّ الحديثَ عنهُ يُحزن والدتهم، فيتجنّبونَهُ على الرّغم من الأسئلة الكثيرة الّتي تدور في رؤوسهم. ودائمًا ما كان يشعر الابن البكر بتحمّله مسؤولية الحلول محلَ والده في المنزل، فنَضج في سنٍّ مُبكرَة وتكبّدَ عبء دعم أمه عاطفيًّا والاستماع إليها تتحدّث عن والده، لا سيّما عن صعوبة الحياة من دونه. فأيُّ من الأطفالِ لم يعش طفولةً طبيعية بعد فقدان أبيهم، والكثير من احتياجاتهم قد أُهمِلَت.

أمّا الطفلان الأصغر سنًّا اللّذان لم تتسنَّ لهم معرفة والدهم حقّ المعرفة، فلا يشعران بأنَّ عليهما أن يحزنا لإخفائه، فهما لا يعرفانِ مَن فقدا، حتّى أنّهما غالبًا ما يتجنبان الحديث عنه مع رفاقهما في المدرسة.

ومع مرور الوقت، راحَ كلٌّ فرد من أفراد العائلة يستوعبُ معاناته بشكلٍ أكبر من أجل حماية بعضهم بعضًا من الألم الناجم مِن المشاركة. وهم يتقلّبونَ ما بينَ يأسٍ وأملٍ مرارًا وتكرارًا في اليومِ الواحد، وكُلّما سمعوا أيّ نبأ.

أُطفِئَ فتيلُ الحرب، وأمراؤها مُنحوا عفوًا، لكنَّ جريمة الإخفاء القسري تبقى مستمرّةً. يشعرُ أفرادُ العائلة أنّهم مسجونون، كلٌّ في طريقتهِ الخاصة، ولكنهم يتشاركون بعضًا من آثارِ هذا السجن.

مسارُ حياةِ كُلِّ قريبٍ من أقارب المفقودِ يبدو كأنّه توقّف عندَ لحظةِ إخفائه، فهم لم يعودوا يُشاركون في العديدِ من جوانب الحياة كما كانوا سابقًا، وتوارُوا في حياتهم الخاصّة. لا تقدرُ الزوجة على تحديدِ حالتها في المجتمع، فلا هي زوجة ولا أرملة ولا مطلقة... وأحيانًا ما تُوصمُ بالعارِ لمجرّدِ أنّها ترغبُ في العودةِ إلى سابقِ عهدِ الحياة، ثمّ تؤنّبُ نفسها على رغبتها هذه.

مرّت سنواتٌ على انتهاء الحرب، وتبيّنَ ألّا جدوَى تؤمَلُ مِن السّلطات. فبعضُ الأشخاص المفقودين ظهروا هنا وهناك، عائدِين من السّجون في بلدانٍ مجاورة انخرطَت في النزاع؛ وكانَ من شأنِ عودتهم المباغتة أن منحَت العائلات بصيصَ أمل. أمّا الآن، وبعدَ تكرّرِ أحداثٍ مُماثلة، قررَت بعض العائلات الإطباقَ على مُعاناتها في مُحاولةٍ للعودةِ إلى الحياةِ المُعتادة، بينما شارك آخرون في مبادرات المجتمع المدني على أملِ الحصول على إجابات.

واليومَ، أي بعدَ مضيّ نحوَ 40 عامًا على إخفاءِ المفقود، تُصارِعُ عائلته احتمالَ وفاته، وكُلّما فكّروا في هذا الاحتمالِ، تملّكهم تأنيبُ الذّات. قد ينسون قضيّة الإخفاء في بعض الأحيان، إلّا أنَّ الشّعور بالذّنب سُرعان ما يتملّكهم ويُعيدهم إلى ذكرياتِهم عنهُ وإلى المشاعر المُرافقة لها.

توفي والد وليد، وحالة والدته الصحية تتدهور بسرعة، أمّا أشقاؤه وزوجته فَهُم وحدهم يتحمّلون عبء الذكرى، وعبءَ كونهم آخر من بقيَ ليخبرَ قصّته أو ليتعرّفَ إليه أو إلى جثته.

يسعى أولاده إلى تعويضِ غيابِ والدهم، بتكريسِ حضورهم مع أولادهم، وبإخبارهم كُلّ ما يعرفونه عن جدّهم.

الذّنبُ وتأنيب الذّات واليأس والأمل وقلّة الحيلة والغضب والقلق، مشاعرُ هي رفيقهم الدّائم في حياتهم اليومية.

مراحل الفقدان الغامض

يشيعُ في ممارسة العمل العلاجي، أن يُطلبَ إلى الأفراد أن يخطّوا مسارًا زمنيًّا لتجاربهم. وعلى الرغم من قدرتهم على وضع تجاربهم في تسلسلٍ زمنيّ مُستقيم بحسبِ وقتِ وقوعها، إلّا أنّ المسار الحقيقي لتطوّر التجربة ولنضوجهم يأخذُ منحًى مُتعرّجًا أكثرَ منه مُستقيمًا.

غالبًا ما يقومُ الأفراد بإعادة النّظرِ في المشاعر المُستعيدة للماضي أو التجارب الأُولَى وأنماطها (من أفكارٍ وتصرفاتٍ وعواطفَ وأحاسيسَ جسدية...) إلى أن يصلُوا إلى البصيرة (الوعي) حولَ ما يمرّون به من تجارب، فيصبحونَ أكثرَ وعيًا للعوامل الداخليّة والخارجيّة الّتي تُبقيهم "عالقين" وتلك الّتي تُيسّر نضوجهم.

وفي ضوء هذه الفكرة، تمرّ عائلات المفقودين في مراحلَ مشتركة تعتمدُ على الوقت الّذي مضَى منذ الإخفاء. وبالرّغم من أن طريقة عيشهم لهذه المراحل تخضعُ لفرديّتهم، إلاّ أنّها جميعها تخضعُ لتسلسلٍ مُستقيم أو تصاعدي واحد. وتتّبع سلسلة الاستجابات العاطفية وآليات التأقلم غالبًا مسارًا معينًا، يُرسَم مع مرور الوقت، ولكن قد تتطلب أيضًا العودة إلى المراحل السابقة مع استمرار تبدّل تأثير الإخفاء.

فيما يلي عرضٌ لِتسلسلِ المراحل على النّحو الّذي اختبرته العائلات ووصفته، وذلكَ بِناءً على تقارير التمارين التجريبية المُنظّمة ضمنَ دورات الدعم النفسي الاجتماعيّ التي يديرها متخصصون بالصّحة النفسية . ولا بدّ، في هذا الموضع، منَ التّنويه بأنَّ التجاربَ هذه قد تتفاوت بشكلٍ ملحوظ بين أفراد العائلة الواحدة بحسبِ عواملَ عدّة (داخلية وخارجية)، لا سيّما بحسبِ نظرتهم إلى الفقدان وقدرتهم على منحه معنًى.

البحث النَّشِط

> "كانت بيروت مقسومة إلى شرقيّة وغربيّة، ولم نستطع العبور من جهة إلى أخرى والتّنقّل بحثًا عن مفقودَيْنا. كنّا نعرف أشخاصًا نتواصل معهم فيخبرونَنا بأنّهما محتجزَان كرهينَتَيْن في مبنًى ولم أستطع أن أترك أطفالي وأذهب"
>
> إنعام، شقيقة وزوجة مفقودَيْن، 2021

ما إن يعلمَ أفرادُ العائلة بفقدانِ عزيزهم، حتّى يحملهم انعدامُ الإجابات والرغبة الشّديدة في المعرفة إلى البحثِ بذعرٍ وخوف. فيستنفدُونَ قُصارَى جهودهم ووسائلهم المُتاحة وأوقاتهم في التّوصّل إلى فهمِ ما حدثَ أو جمعِ أيّ معلومة ممكنة. تُصبح هذه المرحلة المضطربة من البحث غالبًا مرهقة ومستهلكة، حيث يحاولون فهم الوضع والإبقاء على الأمل في مواجهة المجهول.

يكمنُ الدّافع إلى البحث المُضّطرب والمتواصل عن المفقود في الخوف على سلامته والحاجة إلى الاطمئنان بأنّه لا يزال على قيد الحياة، وفي عبء الوقت الذي يمضي من دون تحصيلِ إجابات أو معلومات يُعوّلُ عليها. وغالبًا ما تتحمل العائلات تجارب صادمة، مثل زيارة أماكن خطيرة ومواجهة العنف والتعرض للاستغلال أو التهديد بالقتل. وقد تتضمن رحلتهم الوقوع على مشاهدَ مروعة، مثل مُعاينة القبور الجماعية أو التحقيق في أدلة غير مؤكدة، بينما يتحملون عبئًا عاطفيًا وجسديًا من دون حصولهم على دعم أو معلومات موثوقة من السلطات.

التهرّب من مشاعر اليأس والعجز

خلالَ دوراتِ البحثِ النَّشِط، نزعَت العائلات إلى تجربةِ مراحل الإجهاد المُترتّب عن البحث المُستنزِف للطاقةِ العاطفيّة والجسديّة، فتشعرُ بيأسٍ لم تعرفه مِن قبل. وتميلُ حدّة اليأس إلى الاشتداد مع مرور الوقت، وبعد انتهاءِ كلِّ دورةٍ من دورات البحث النَّشِط. ورغم ذلك، تُعدُّ العودةُ إلى استكمالِ البحث أحدَ آليّات التّأقلم التي تعتمدها العائلات، حيث تساعدهم على تجنّب الاحتمال المرعب بفقدان أحبائهم بشكل نهائي. إنّ التّفاعل المتكرّر مع البحث يعكس الكفاح المستمر من أجل الوصول إلى التّصالح، مع التمسك بالأمل حتى في مواجهة الإرهاق العاطفي. يعكس الانخراط المتكرر في البحث الصراع المستمر من أجل الوصول إلى خاتمة مع التمسك بالأمل، حتى في مواجهة الإرهاق العاطفي.

ويتجلّى هذا التّهرّب أيضًا في لقاءات أفراد العائلة أو مجتمعها القريب، حيثُ يتجنّب المُجتمعونَ التّحدّث عن مصير المخفيّ. وتتجنّبُ العائلة التّفكيرَ في الفقدان الأبدي، وتخشَى الوقوعَ بانهيار عاطفي بمجرّد تفكيرها في هذا الاحتمال. ويشعر أفرادُ العائلة أنّهم مجبرون على البقاءِ "أقوياء" إلى حين العثور على المفقود.

التّقلّب ما بين أملٍ ويأس

"هو حيٌّ في قلوبنا وميت في عقولنا"

شقيق أحد المفقودين، 2017

فقـط بعـد العديـد مـن السـنوات أو المشـاركة فـي الدعـم النفسـي الاجتماعـي يمكـن لبعـض الأقـارب التوصـل إلـى التفاهـم مـع التناقـض بيـن مشـاعرهم وأفكارهـم العقلانيـة. العديـد مـن العائلات يتمسـكون بالأمـل، لكنهـم يتأرجحـون بيـن الأمـل واليـأس. بالنسـبة للبعـض، فـإن قبـول أن الشـخص المفقـود قـد يكـون قـد توفـي يشـبه الشـعور بالذنـب علـى تسببه في وفاته، مما يضيف عبئًا ثقيلاً على عملية معالجتهم العاطفية ويعقد قدرتهم على إيجاد السلام الداخلي.

"كنا نجتمع أمام القصر الحكومي، أو في حديقة الصنائع، أو أمام المتحف، لكن بلا جدوى. وقالوا لنا إنَّ أخبارًا ستردُنا غدًا وبعدَ غدٍ، وما زلنا، حتّى اليوم، بلا أيّ خبرٍ، لكنّ ذلكَ منحنَا الأمل وهذا الأملُ لا يزال حيًّا فينا."

وفاء، شقيقةُ أحد المفقودين، 2021

" لا نقول رحمه الله عليه، بل نقول أقسم بغياب والدي."

زهراء، ابنة أحد المفقودين، 2021

التيقّظ والحفاظ على الروتين والطقوس

التّيقّـظ هـي حالـةٌ عـادةً مـا تشـيعُ بيـنَ أقـارب المفقوديـن، ولا تقتصـر علـى وقـتِ البحـث فحسـب، ذلـكَ لأنّهـم يقبعـونَ فـي حالـةٍ مسـتمرّةٍ مـن التّرقّـب، سـواء أكانـوا يشـاهدونَ الأخبـار أو فيلمًـا أو يتصفّحـونَ الجريـدة أو يطّلعـونَ علـى أيّ وسيلة إعلامية.

فقـد ذكـرَت أمهـاتٌ وزوجـات كثيـرات أنهـنّ كُـنَّ يبقيـنَ مسـتيقظاتٍ طـوالَ اللّيـل، ويتركـنَ النوافـذَ مُشـرّعةً، ويتسـمّرنَ دومًـا قـربَ الهواتـف (وذلـكَ قبـلَ ظهـور الهواتـف المحمولـة)، وكُـنَّ يقفـزنَ مـن أسـرّتهنّ كُلّمـا سـمعنَ أيَّ ضوضـاء خلالَ الليـل، وقـد بلـغَ منهـنّ الأمـرُ مبلغَـهُ، فَبـدأنَ يشـعرنَ بأنَّهـنَّ يتوهّمـنَ أشـياءَ مـا كانَـت يومًـا أو يخطئـن فـي التعـرّف إلـى النّـاس في وسائل الإعلام أو في الشّارع.

وغالبًـا مـا يحافـظُ أفـراد العائلـة علـى طقوسـهم وعادتهـم الّتـي كانُـوا عليهـا سـابقًا مـع المفقـود، كأن ينتظرُوه فـي وقـتِ العشـاء، أو أن يُوضّبُـوا غرفتـه عنـد حلـولِ موسـمي الربيـع والشـتاء لتكـونَ جاهـزة حيـنَ عودتـه، أو أن يتمسّـكوا بـكلِّ مـا قـد يُشـعِرُهُم بـأنَّ المفقـودَ موجـودٌ بينهـم. وتختلـفُ هـذه العـادات عـن طقـوسِ العائلـة المُمتـدّة الّتـي غالبًـا مـا يتخلّـى أفـرادُ العائلـة عنهـا مثـلَ اللّقـاءات العائليّـة والاحتفـالات وحـفلات الزّفـاف، علـى سـبيلِ الذّكـر، فينسـحبونَ مِـن المُناسـباتِ العائليّـة والاجتماعيّـة الّتـي قـد تُدخـل السّـرور إلـى نُفوسـهمِ أو الّتـي تُجبرهـم علـى مُواجهـةِ أشـخاصٍ لديهـم أفكارٌ مُغايرة حول مصير المفقود.

تناوبُ الأمل واليأس

بعـدَ أن تسـتنفد العـائلات جهودهـا فـي الحصـول علـى إجابـات عقـبَ بذلِهـا سـنواتٍ فـي البحـث، يميـلُ بعـض الأفـراد إلـى التمسّـك بالأمـل كلّمـا بـدأ يعتريهـم اليـأسُ النّابـعَ مـن شـعورهم بالذّنـب، فـي حيـن، يمـرّ أفـرادٌ آخرونَ بدوامـاتٍ مـن فقـدانِ الأمـل الّتـي تُفـرضُ غصبًـا عنهـم، فتُصيبُهـم آلامٌ نفسـية جسـدية[10]، ويعانـون انهيـاراتٍ عاطفيـة متكـررة، أو نوبـاتٍ مـن الغضـب الجامـح. إلاّ أنّ معظـمَ أفـرادِ العائلـة يميلُـونَ إلـى التقلّـبِ مـا بيـن فتـراتٍ قصيـرةٍ مـن اليـأس والتّشبّث المُتجدّدِ بالأمل.والتّشبّث المُتجدّدِ بالأمل.

-(10) الّتي تنجم من أعراضٍ جسدية سببها اضطرابٌ عقلي أو عاطفيّ، أو الّتي ترتبطُ بها أو الّتي تنطوي عليها أو الّتي تُعنَى بها. التعريف مأخوذ من قاموس ميريام ويبستر.

لـذا، كانَ مـن الشّـائعِ أن يقـولَ أفـرادُ العائلـة إنّ مفقودَهـم كانَ: "حيًـا فـي قلوبهـم وميتًـا فـي عقولهـم." وهـذا التضاربُ بيـنَ مـا يشـعرُونَ بـه ومـا يفكـرون فيـه إنّمـا يُجسِّـدُ الحالـة المسـتمرّة مـن تعـارضِ الأفـكار والعواطـف، أي التّناقـض الوجداني تجاه المفقود.

الرغبة في العودة إلى الحياة الطبيعية

لعـلّ أكثـر مـا يُخـزِي عـائلات المفقوديـن مـن تجربـة الإخفـاء هـو الرّغبـةُ فـي عيـشِ حيـاة يوميـة طبيعيـة دون التّفكيـر بالمفقـود. فمـا إن يَجـد أفـراد العائلـة أنفسـهم يعيشـون حياةً طبيعيّـة، مـن دونِ أن تراودهـم أفـكارٌ حـول المفقـود لفتـرةٍ وجيزةٍ، حتّـى يُثقلـوا بتأنيـب الضمير ليعيشُـوا مُجدّدًا وزرَ الغيـاب.

ضغوطات من السلطات وأفراد العائلة

كمـا عُـرِضَ تفصيلاً فـي الفصـل الأوّل، قامـت السـلطات بمحـاولاتٍ جمّـة، علـى مـرّ السـنوات، مـن أجـلِ إغلاق ملـف المفقودين في لبنان. وكانَ جزءٌ من هذه الجهود يكمنُ في الضّغط على العائلات من أجل إعلان المفقودِ متوفًّى.
وتُضافُ إلـى تلـكَ الضغوطـات، الصّعوبـات القانونيـة والإداريـة والاقتصاديـة التـي تواجـه العائلـات عندمـا يُفـرضُ عليهـا إصـدار وثيقـة وفـاة المفقـود، فـي حيـنٍ يتعـذّر عليهـا ذلـك، وهـو أمـرٌ مفهـوم. ومِـن الأمثلـةِ فـي هـذا الصّـدد، المؤسسـات الّتـي تحـرمُ عائلـة المفقـود مـن الاسـتفادة مـن خطّـة تقاعـده، أو مـن حساباتـه المصرفيـة، أو تمنعهـا مـن بيـع ممتلكاتـه، إلاّ إذَا أعلنَـت مفقودهـا متوفًّـى. وغالبًـا مـا يُثيـرُ هـذا الموضـوع نزاعًـا داخـل العائلـة، فتتأجّـجُ مشـاعرُ أفرادِهـا فـي التّخلّـي والخيانة بمجرّدِ النّظرِ في هذا القرار، ويحسبونَ أنفسهم 'يقتلونَ عزيزَهم المفقود' بأيديهم.
ومـا يزيـدُ هـذه الضّغوطـات بلّـةً، هـم الوسـطاء، وأغلبُهـم مِـن المُخادِعيـن، الّذيـن يبتزُّونَ العائلـة بمعلومـاتٍ مزعومـة عـن مـكانِ المفقـودِ أو بالوعـدِ بإعادتِـه. وقـد حملَـت هـذه الضغوطـات أفـرادَ العـائلات إلـى بيـع ممتلكاتهـم وممتلـكات مفقوديهم، لأنّهم لم يقْوَوا على الامتناعِ عن دفعِ كلّ ما في حيازتهم ثمنًا لِحرية عزيزهم المفقود أو لِمعرفة مصيره.

التّأقلم مع الغموض

مـن الشـائع أن يُؤقلِـمَ أفـراد العائلـات، علـى مـرّ السّـنين، فهمهـم للإخفـاء، وهـو مـا مـن شـأنه أن يولّـدَ صدامـاتٍ فيمـا بينهـم، لا سـيّما خلالَ السّـنوات الأولـى. فـكُلُّ فـردٍ منهـم يحتـاج إلـى التأقلـمِ مـع الغمـوض اعتمـادًا علـى احتياجاتـه، فمَـن لا يقـدرُ، مثلاً، علـى اسـتيعابِ فكـرةِ وفـاة المفقـود، سيُخفّـفُ عـن نفسـهِ بالاعتقـاد أنّـه محتجـز فـي السّـجن، ومَـن لا يقـوَى علـى التعايـشِ مـع القلـقِ الناجـم مـن جهلـهِ مصيـر المفقـود، سينسُـجُ فـي خيالِـهِ قصّـةً تريـحُ بالـه و 'تُبـدّد الغموض'. فمخاوفُ كلٍّ منهم واحتياجاته وتفكيره المنطقيّ في تضاربٍ دائمٍ.

أثر الإخفاء على الصّعيد الفردي والأسري والاجتماعي

"الفقدان الغامض، فقدانٌ مُبهم.
الفقدانُ الغامض، فقدانٌ مُؤلم.
الفقدان الغامض، اضطرابٌ علائقيّ.
الفقدان الغامض يُسبّبه عاملٌ خارجيّ (مثلاً، المرض والحرب)، لا مرض الفرد.
الفقدان الغامض، فقدانٌ غريب - محيّر وغير مفهوم."

بولين بوس، 2009.

يظهـر الفقـدان الغامـض واضحـاً فـي المجـال العلائقـي، إذ يقـع عـبءَ الإخفـاء علـى الديناميـات التـي تحـدّد العلاقـات ضمـن العائلـة، فيمـا بيـن أفرادهـا، وبينهـم وبيـن المفقـود، والمجتمـع. وقـد ينعكـسُ هـذا الأثـر العلائقـي غموضـاً فـي الحـدود الشّـخصية. والحـدود فـي العلاقـات تكـون نفسـية وعاطفيـة وجسـدية، يضعهـا الأفـراد لحمايـة هويتهـم وتحديـد علاقتهـم بالآخريـن. وحسـب الجمعيـة الأمريكيـة لعلـم النفـس، للحـدود دورٌ حاسـمٌ فـي تمييـز هويـة الفـرد واحتياجاتـه ومشاعره عن تلك الخاصة بالآخرين، ما يعزز التفاعل الصحي بين الأفراد.

حيـنَ تكـون الحـدود غيـر واضحـة أو متداخلـة، تصبـح الهويـة الشـخصية مشوشـة، ممـا يـؤدي إلـى ارتبـاكٍ بشـأن الاحتياجـات والقيـم والاسـتقلالية الفرديـة. وفـي المقلـب الآخـر، يمكـن للحـدود الصارمـة بشـكل مفـرط أن تخلـق مسافة عاطفية، مما يعوق بناء روابطَ حقيقية وهادفة مع الآخرين. ويسمح التوازن الصحي في الحدود بتحقيق كل من الفردية والترابط.

على صعيد الفرد

الفقـدان الغامـض لا يتجلّـى فـي المجـال العلائقـي فحسـب. فالفقـدانُ صـادِمٌ أيضًـا. وعلـى حـدٍّ مـا وردَ آنفًـا فـي المقدمـة، فإنّ الصدمة المُتمادية زمنًا أو المُتكرّرة يستمرُّ أثرها على المدى الطويل ويمكن أن تؤدّي إلى اضّطراباتٍ نفسية كالصّدمة المعقّدة.

ومـن شـأنِ التّعامـل مـع الإخفـاء، المسـتمرّ فـي طبيعتـه، أن يـؤدّي إلـى أعـراضٍ نفسـية مثـل الاكتئـاب والقلـق والأعـراض المرتبطـة بالصّدمـة، ومنهـا الشـعورة بالذنـب وتأنيـب الـذّات والعُزلـة والتناقـض الوجدانـي، فـضلاً عـن مُشكلاتٍ في وضعِ الحدود وتحديد الهوية، كما ذُكرَ سابقًا.

وقد تؤدي هذه الأعراض في غالب الأحيان إلى اضّطراباتٍ نفسيّة، وذلك في حال:

1. أعاقت الأداء
2. طالت مدّتها - لأكثر من شهرٍ واحد
3. اشتدّت حدّتها

ومع ذلك، ليسَ الفقدان الغامض اضطرابًا في حدِّ ذاته، بل ردّ فعل طبيعي على حدثِ الإخفاء المستمرّ.

هل الفقدان الغامض مُختلفٌ عن الحزن؟

عندما يُفاقِمُ الغموضُ الفقدانَ سوءًا، تتجمّدُ عمليّة الحزن" (بوس، 1999) بسببِ وضعٍ يخرجُ عن سيطرة أقارب المفقود، وهو ما من شأنِه أن يُضعضِعَ شعورهم بالسيطرة وقدرتهم على استشرافِ المستقبل وعلى التّحسّبِ لِمَا سيقع. فَتخيّل أنّك تنتظر حدثًا لكنّكَ لا تملكُ مؤشّرًا واحدًا يدلّكَ على موعدِ انتهاء فترة الانتظار. وعادةً ما يُشبّهُ هذا الوضع بالجلوسِ في غرفةِ الانتظار، ترقّبًا لحلولِ موعد الطبيب. والأمرُ سيّان بالنّسبة إلى عائلات المفقودين، فهم عالقون في غرفةِ انتظارِ عودة أحبائهم. ويبقى كفاحهم منوطًا بالحفاظِ على قدرتهم على الانتظار، لا بلوغ الخواتيم قبل التّوصّل إلى حقيقة مصير مفقوديهم ومكان وجودهم. فالسّبيلُ إلى بلوغِ الخواتيمِ يبدأُ عندَ الإتيان بإجاباتٍ عن مصير المفقود.

الشعور بالذنب وتأنيب الذّات

يميلُ أقارب المفقود الّذين شهدُوا لحظةَ الخطف، أو الذين كانوا على خلافٍ مع المفقود، إلى تحمّل وزر المسؤولية الشخصية عن الإخفاء. ويترافق هذا العبء مع الشعور بالذنب وتأنيب الذّات، لإدراكهم، بعدَ فوات الأوان، أنّهم لم يمنعوا الإخفاء، أو أنّهم، لو كانوا حاضرينَ وقتذاك، لقامُوا بأي عملٍ لإيقافهِ أو للعثور على المفقودِ.

وتشيعُ هذه المشاعر بينَ أقارب المفقودين الّذينَ انخرطُوا في القِتال، إذ يُؤنّبونَ أنفسهم على عدمِ الذهاب إلى الحرب بدلاً من المفقود أو على تنشئتهم المفقود على الولاء للوطنِ أو لمجموعته الاجتماعيّة الذي أدّى به إلى الخطف أو الإخفاء.

على صعيد العائلة

عندما تنقطع علاقة ما فعليًا، ولكنها تستمر نفسيًا دون القدرة على فهم معناها أو إيجاد تفسير لانهاءها المفاجئ، تصبح هذه العلاقة مصدر إشكال للأفراد المعنيين بها.

في العائلةِ، حينَ يُخفى أحد الأفراد، لا يؤثّر هذا الانقطاع في الرّوابط بين المفقود نفسه وكلِّ فردٍ من أفراد العائلة فحسب، بل تؤثّر في الرّوابط بينَ أفرادِ هذه العائلة فيما بينهم أيضًا.

في نظريّة الأنظمة الأسريّة، تسعى العائلات إلى تحقيق الاتّزان الأسري[11] بغيةَ الحفاظ على تنظيمها وعملها مع مرور الوقت. فيقاومُ نظام العائلة التغيير، وإن وقعَ، يسعى هذا النّظام إلى إقامةِ توازنٍ جديدٍ. فَعلى سبيل المثال، عندما يتزوج أحد الأولادِ في العائلة، فإنّ باقي الأفراد سيعيدون تأسيس ديناميات ترمي إلى الحفاظ على التوازن القديم على غرارِ استبدال دور الفرد الذي 'غادرَ'، إن على نحوٍ واضحٍ وصريح مثل إعادة توزيع المسؤوليات أو على نحوٍ مُضمر مثل الاستئثار بالسلطة وإقامة التحالفات وما إلى ذلك.

في حالةِ الإخفاءِ، يحتاج النّظام الأسري إلى تحقيقِ اتّزانٍ جديد، على الرّغم من أنَّ التّغييرَ الطّارِئ غامضٌ وهو حدثٌ غير مألوف لا تقدر العائلة على التّعامل معه. إنّهُ إخفاء صادِم، تندرُ، لا بل تنتفي، الإجابات عنه.

الجمود والغموض الحدودي

بعدَ وقوعِ الإخفاء، يُكافحُ أفراد العائلة لاستيعابِ هذا الغموض، فيسعونَ إلى إيجاد معنى لفقدانهم الغامض، وغالبًا ما ترتبطُ الرّواية الّتي يؤلّفها كُلٌّ منهم، بعواملَ داخليّة وخارجيّة تخصّهُ وحده وبعلاقته بالمفقود أكثرَ من ارتباطها بعامل الإخفاء نفسه. لذلك، من الطبيعي أن تختلفَ وجهات النّظر في العائلة الواحدة حول ما حدث للمفقود، وتتفاوتُ مستويات تقبّل الفقدان، وهو أمرٌ مفهوم، خاصّةً بوجود احتمال أن يكون المفقود لا يزال على قيد الحياة.

ومن شأنِ هذه العملية أن تُجمِّدَ حركة العائلة في محاولتها إقامة توازنٍ منهجيّ جديد، وتنشأ النزاعات بسببِ روايات الأفراد المتضاربة حول ما إذا كانَ الفقدانُ مؤقتًا أم أبديًّا. فَبعضُ العائلات قد تمسي عالقة أو مُجمّدةً في هذا الموقف لأنّها تسعى إلى حصر الإخفاء في معنى واحد أو تعريفٍ واحد. ويحولُ العجز عن تقبّلِ الآراء المتباينة دونَ توضيح القواعد والأدوار الجديدة ضمن العائلة، والحدود التي يضعها أفرادها كُلٌّ لنفسه وفيما بينهم، وكذلك القدرة على تكييف تقاليد العائلة وطقوسها.

> "أخي، رحمهُ الله، فُقِدَ وأنا مدينٌ له بالكثير، وما زلت أبحث عنه حتّى الآن، وقد مضَى أربعون عامًا، على أملِ الوصول إلى إجابة ... لقد نسيَه كلٌّ من زوجته وأطفاله ... لقد فُقِدَ حتّى تتمكن أسرتي من العودة إليّ بأمان."
>
> سليم، شقيقُ أحد المفقودين، 2021

التغييرات في نظام العائلة: أدوار جديدة، وقواعد جديدة.

في أغلبِ الأحيان، شكّلَ الرّجالُ مِمَّن هم في سنِّ الإعالة، هدفًا للإخفاء القَسري خلال الحرب اللبنانية. وكانت نساء المفقودين في لبنان، لا سيّما الزوجات والأمهات، مُضطّراتٍ لأداءِ دورٍ مزدوج ضمنَ العائلة. وكان من الشائع أيضًا أن يؤدّي الأطفالُ أدوارَ إخوتِهم الأكبر سنًّا المفقودين أو دورَ الأب أو دورَ الأم.

في بعض الأحيان، كانَ على أفرادِ العائلة الاضطلاعُ بدورٍ جديدٍ أو تأديةُ أدوارٍ عدّة من أجل ضمانِ استمرارية العائلة والحفاظ على توازنٍ لا يختلف كثيرًا عن ذاكَ الّذي كانَ قائمًا قبلَ الإخفاء. وفي هذا الصّدد، شاعَت الأعراض الجسدّية والنّفسية المزمنة بينَ الأفراد الّذين يتحمّلون هذه الأعباء الإضافية.

> "ما هو شكل العائلة الآن؟ من يشكّل فردًا مِن العائلة أو من لا ينتمي إليها؟ هل يؤدي قريب المفقود الذي يحلُّ محلّه اليومَ دورًا رمزيًّا أم مجرّدَ دورٍ عمليٍّ؟ ما الأدوار الجديدة التي يتعيّن على كلِّ فردٍ تأديتها؟ من الذي يقرر هذه التغييرات ضمنيًا؟ وبصراحة؟ ما هي القواعد الجديدة السارية الآن؟ مَن أكون بالنسبة إلى المفقود؟ مَن هو بالنّسبة إليّ؟ حينَ يعودُ، أو إن عادَ، هل سيكون عندئذٍ الشّخص نفسه الّذي كانَ عليه مِن قبل؟ هل سأبقى الشّخص نفسه بالنّسبة إليه؟ هل سيعود إلى الوضع نفسه الّذي كانَ عليه قبل إخفائه؟"

-(11) حالة توازن مستقرة نسبيًا أو ميل نحو مثل هذه الحالة بين العناصر المختلفة ولكن المترابطة أو مجموعات من عناصر كائن حي أو مجموعة سكانية أو مجموعة. التعريف مأخوذ من التعريف مأخوذ من قاموس ميريام وبستر الإنجليزي.

وإلى جانبِ الأدوار العملية الّتي يضطلعُ بها أفرادُ العائلة، فإنّهم يؤدّونَ أيضًا أدوارًا ضمنيّة ورمزيّة بغيةَ سدِّ شغورِ الشّخص المفقود، كأن يكونَ الطفل هو الدّاعم العاطفي للزوجة أو الزوج، وأن يكونَ مرجعًا (أي أبًا رمزيًا مثلاً) لإخوته والمساعدة في تربيتهم ونحوَ ذلك...

التجارب المشتركة بين أفراد عائلات المخفيين.

تُلقِي تجربة إخفاء فردٍ مِن العائلة النواة بآثارٍ مُتشابهة على بقيّةِ الأفراد. لكنَّ عواملَ عدّة تؤثّر في كيفيّة اختبارِ الفرد تجربةَ الإخفاء، مثلَ موقعه في العائلة، وسنّه عندَ وقوع الإخفاء ودوره قبل الإخفاء وبعده، بالإضافة إلى مواردِه الداخليّة والخارجيّة للتعامل مع الإخفاء، وأخيرًا ديناميات العائلة.

إنَّ الوصفَ الواردَ أدناه هو عبارَة عن تجاربَ مشتركة جُمعَت مِن مئات السّاعات من المقابلات الّتي أجراها مع عائلات المفقودين مرافقو جمعية "لنعمل من أجل المفقودين" ومِن بعض المقابلات التي أجريت مع العائلات أثناء إعدادِ هذا الدليل.

وليست هذه التّجارب عالميّة ولا حتميّة، لكنّها تجارب مشتركة يتقاسمُها أقاربُ المفقودِ المباشرون.

الأهل

غالبًا ما تحلُّ أمّهات المفقودين في بؤرةِ اهتمامِ وسائل الإعلام، لا سيّما في السّياق اللبناني. فَدائمًا ما كانت الأمّهاتُ حاضراتٍ في كلّ مناسبةٍ للمُطالبةِ بالحق في المعرفة، فيما كانَ الآباءُ يؤاثرونَ الوقوفَ في المواضع الخلفيّة. وعلى الرّغم من أنَّ بعضَ الآباء كانوا نشيطين في مراحلَ عدّة، إلى جانبِ نشاطهم خلال البحث النّشِط، فعادةً ما يلزَمونَ الصّمت أكثرَ من زوجاتهم. وأدّت أمّهات المفقودين في لبنان أدوارًا جوهريّة في النّضال من أجلِ الحقّ في المعرفة ومن أجلِ البحث عن أولادهنَّ، وهذا ما قد سلّطت وسائل الإعلام اللبنانيّة الضّوءَ عليه.

> "كثيرًا ما أشعر بالأمل أكثر من شعوري باليأس. لولا الأمل، لما كنّا نواصل، حتّى يومنا هذا، عقدَ الاجتماعات وتنظيمَ الاعتصامات، وهذا لأنّنا نريدُ أن نعرفَ ما هو مصيرهم. إذا كانوا قد توفوا، فنحنُ نقبلُ مشيئةَ الله، ولن يبقى لديّ هذا الشعور المستمرّ بأنّه ربّما سيطرقُ بابي في أيّ لحظةٍ. نتحلّى دومًا بالأمل، فلولاهُ لقضَى البشر."
>
> والدةُ أحد المفقودين، 2021

ربّما يؤدّي فقدانُ الولدِ الغامض إلى شلِّ الأمّهات أكثر من غيرهن، فيصبحنَ أكثر وهنًا على كلِّ الجبهات، ما خلا البحث عن مصير أولادهنّ. وغالبًا ما كانت الأمّهاتُ الوحيداتِ ضمنَ مجموعاتِ الدّعم، اللّواتي تمسّكنَ بالأمل في عودةِ المفقودينَ، لكنّهنَ أحجمنَ عن تعريفِ الأمل، وهو ما كانَ جزءًا من عملية التّعامل مع الغموض بحسبِ الأهداف العلاجية السّتة الّتي تُحدّدها بولين بوس[12] . وهنَّ أشدُّ المؤمناتِ بأنَّ أبنائهنّ وبناتهنّ قد سُجنوا في مكانٍ ما. وتتجلّى حالةُ الجمود هذه أيضًا في سلوكِ الأمّهات اللّواتي يُؤاثِرنَ الاحتفاظ بجميع مقتنياتِ المفقودينَ، ويرفضنَ المساسِ بغرفهم، حتّى أنّهن، في بعضِ الأحيان، يُبقينَ أطباقهم على موائد العشاء، ويتسمّرنَ قربَ الهواتف أو يُلازمنَ منازلهنّ لسنوات.

الزوجات

غالبًا ما يؤدي إخفاء الزّوج إلى إلقاءِ مسؤوليّاتٍ جديدة على عاتقِ الزوجات. فبالإضافة إلى ثقلِ البحث عن المفقود في وقتٍ لم تكن فيه المرأة بالقوّة الّتي هي عليها اليوم، كان على الزّوجات والأمّهات أن يحلَلنَ محلَّ الأب ماديًّا وعاطفيًّا وعمليًّا.

-(12) ستة محاور تشكل جوهر التدخلات النفسية لمن يعانونَ الفقدان الغامض.

"عملتُ مدّة خمسة عشر عامًا قبلَ أن يبدأ أولادِي بإعالتي. كانت الحياةُ صعبة بالنّسبة إلينا."

سلام، زوجة أحد المفقودين، 2021

"انقلبَت الحياةُ رأسًا على عقبٍ، وأمست صعبةً. كنتُ صغيرةً وبريئةً قبل أن يُخفى زوجي، ويتركني مع أطفالٍ صغارٍ جدًّا. في البداية، رحتُ أنظّفَ المنازل. ثمّ وجدتُ وظيفةً ثابتةً في إحدى الصّحف [...] لا أشعر أنّني أرملة ولا مطلّقة، لأنّ زوجي قد يعود في أيِّ يوم. دامَ زواجي ثلاثَ سنواتٍ فقط. أعني أنّني لا أزال أنتظر عودته. ولا أزال أحلمُ به، بمجيئه إليّ. لقد تزوجنا حبًّا ..."

إنعام، شقيقة وزوجة لمفقودَيْن، 2021

فَمن الشائع قراءة قصصٍ (المركز الدولي للعدالة الانتقالية، 2015) عن نساء تلقَّينَ لومَ أهالي أزواجهن وخشينَ أن يفقدنَ حضانة أولادهنَّ بسببِ التّمييز بحقِّ المرأة في القانون اللبناني، وبالتّالي لم يكن لديهنَّ دعمٌ يخوّلهنَ رعاية بقية أفراد العائلة.

"بعد إخفاء زوجي، كان أهله سيّئي التّعاملَ معي وكانت العلاقةُ بيننا مُضطربة، وألقوا اللّومَ عليّ بإخفائه. رؤُوا ابني أوّل مرّة حينَ بلغَ الثانية من عمره، وكانُ اللقاءُ باردًا. لقد عانيتُ في هذه الحياة من أجلِ تنشئة عائلتي، ولكنّني أشكر الله على أنّهم أصبحوا اليومَ طيّبين."

إنعام، شقيقة وزوجة لمفقودَيْن، 2021

في المُقابل، حصلت بعضُ الزّوجاتِ على دعمِ أهالي أزواجهن في البحثِ وتحمّلِ مسؤولية تربية الأطفال. ومع ذلك، عادةً ما تضعُ الزّوجات أنفسهنَّ في مواقفَ محفوفةٍ بالمخاطر، من أجلِ معرفةِ مصائر أزواجهنَّ، ذلكَ على اعتبارهنَّ أقلَّ عرضةً لخطرِ الإخفاء القسري مِن أفراد العائلة الذكور الّذين يتولّونَ تيسيرَ عملية البحث أو المُساعدةِ فيها. وقد تبيّنَ أنَّ مخاوفهنَّ مُحقّةٌ، فكانَ مِن المُرجّح أن يقعَ الرّجالُ ضحيّة الإخفاء أثناء بحثهم عن أقاربهم، لا سيّما عند زيارةِ الخاطفين والمليشيات وأماكن الاحتجاز[13](المركز الدولي للعدالة الانتقالية – 2015).

ويُعتبرُ العار الّذي تُوصم به زوجات المفقودِينَ عاملَ ضغطٍ أساسيّ آخر، ولا يزالُ مُحرّمًا عليهنَّ التحدّثُ عن احتياجاتهنّ كنساء وكأفرادٍ وكشريكات. ويُحرّمُ عليهنَّ أيضًا التّحدّث عن أنفسهنَّ واحتياجاتهنَّ الخاصة في هذا المجال، لا سيّما في ظلِّ الحدود الطائفيّة / الدّينية الّتي اخترنَ البقاءَ ضمنها لئلا يخسرنَ حضانة أولادهنَّ لصالحِ عائلة الأب.

مِنَ الشّائع أيضًا أن 'تحمي' الزّوجات أولادهنَّ بأن يُخفينَ عنهم ما حدَث لوالدهم، فيسردنَ قصصًا مختلفة ويُحاولنَ دومًا الحفاظ على الكذبة. ومن شأنِ هذا الاعتقاد الخاطئ، بإبقاءِ الصّغار في مأمنٍ من الواقعِ، أن يُلقيَ، في نهايةِ المطافِ، عبئًا أكبر على الأم، يزيدُ من وزرِ الإخفاء الذي يُثقلُ كاهلها في الأصل.

الإخوة

غالبًا ما يكتسبُ الأخوة أدوارًا جديدةً داخل العائلة، بينما يبقون يعيشُونَ في أطيافِ المفقود. فمن شأنِ شُعورِ الأولادِ بالذّنب تجاه والديهم، النّاجم مِن عجزهم عن "إنقاذهما" من حالة الفقدان الغامض، أن يُبقي على أدوارهم الأصليّة ويمنحهم موقعًا مُستَتِرًا داخل العائلة.

"لدي ستّة أطفالٍ، لكنّني لسنواتٍ طوال، لم لديّ غيرُ طفلٍ واحدٍ. ابني المفقود حلَّ محل جميع أطفالي الآخرين، وأدركتُ بعدَ فوات الأوان أنّني أهملتهم جميعًا على الصّعيد العاطفي لسنواتٍ."

أمٌ، مضَى على اختفاءِ ابنها ثلاثون عامًا، 2021

-(13) العيش في أطياف الماضي. أثر الإخفاء على زوجات المفقودين في لبنان. الصفحة 10- المركز الدولي للعدالة الانتقالية - 2015

في بعض الأحيان، تتّخذُ الأدوارُ الضمنيّة الّتي يؤدّيها الأخوةُ طابعًا إشكاليًّا، كأن يكونوا أكباشَ الفداء، أو الأبطال، أو المهرّجينَ ... وكلُّها أدوارٌ يمكنُ أن يؤدّيها الأولادُ في الأنظمة الأسريّة الإشكالية (بولسون & نيوتن، 1984؛ وولتر، 1995)، وهو ما مِن شأنه أن يُفاقمَ عبءَ إخفاء أحد الأشقّاء ويزيده تعقيدًا.

كما حالُ بقيّة أفرادِ العائلة، كذلكَ الأخوة يُبدُون تناقضًا شديدًا في المشاعر. فغالبًا ما تكونُ المشاعرُ المتناقضة عصيّة التّقبّل، ويميلُ الكثيرون إلى تعويضِ مشاعرهم المرفوضة بإظهارِ إفراطٍ في الحبِّ والإعجابِ تجاهَ المفقود. في الواقع، فإنَّ المشاعرَ المتناقضة تنشأُ في علاقاتِنَا القائمة مع مَن نُعزّهم، أمّا مشاعرُ خيبة الأمل، والاستياء والنّبذ، فلا تكونُ إلاّ تجاهَ مَن نُحبّهم، ومَن نتوقّع منهم أن يفهمونَا ومَن نحتاجُ إلى قربِهم. يستاءُ الأخوة من أخيهم المفقود بسببِ كمِّ الحبّ والاهتمام والرّعاية الّذي يُعطى له، وبسببِ رغبتهم في إرضائه الّتي لا تُقدّر، ما يُصعّب عليهم تقبّل هذا التّضارب.

لا يشعر الإخوة بالذّنب تجاه أهلهم حصرًا، بل تجاه أخيهم المفقود أيضًا، وذلك بسببِ غيابه المستمرّ، وتولّي دوره في العائلة، واصطفافِ الأهل إلى جانبه ... وهكذا يدخل الأخوة في حلقةٍ مفرغة من الشّعور بالذّنب الّذي يُؤجّجه اضطرارهم إلى تحمّل المزيد من المسؤوليات داخل العائلة، وتفاقم مشاعرهم المتناقضة، ووجوبِ بقائهم إلى جانبِ أهلهم في ظلِّ غياب المفقود. وغالبًا ما يتغاضى الإخوةُ عن احتياجاتهم بسبب مشاعر الذّنب هذه.

الأولاد

عندما يُخفى أحد الوالدين، فإنّ وليَّ الأمرِ الآخر، مثلَ الأمّ أو الأبّ أو أحد أفراد العائلة الّذي يتولّى دورَ الأهل، هو مَن يُقرر الرّواية الّتي سيسمعها الأولاد. وبناءً على هذه الرّويةِ، أو الرّوايات، تختلف تجربة الأولاد اختلافًا شاسعًا. فغالبًا ما تُصاغُ الرّواية، الّتي ستُلقَى على مسامعِ الأولادِ، صياغةً تؤولُ إلى التّخفيفِ من وطأة الواقعة عليهم. وقيلَ لبعضهم إنَّ والدهم المفقود قد سافر أو ذهب لينجز عملاً أو رُويَت لهم حكايةٌ تُسكتهم لبعضِ الوقت. في المُقابل، يكبر بعض الأولاد وهم يعتقدُونَ أنّ والدهم قد توفّي (لحظةَ إخفائه) حتّى يكتشفوا الحقيقةَ في سنٍ أكبر. لذلك، ما مِن أنماطٍ أو قواسمَ مشتركةٍ بين أولاد المفقودين، فهي تختلف اختلافًا كبيرًا بحسبِ الأقاويل الّتي سمعوها عن غياب والدهم، وبحسبِ إن كان لديهم شخصٌ قد أدّى دورَ الوالد الرّمزيّ الّذي فقدوه.

> "حتّى هذه اللّحظة التي نتحدّث فيها عن والدي، أشعرُ بضيقٍ في صدري. لم أشعر قطّ أنّ غيابَه وفاة، في حين أنّ بعض أولاد المفقودين الآخرين الّذين قابلتهم يقسمُون بأرواح آبائهم. أمّا أنا، فلا أقوَى على قولِ ذلك، بل أقول أقسمُ بغيابه. "
>
> ابنة أحد المفقودين، 2021

على صعيد المجتمع

غالبًا ما تُكافحُ عائلات المفقودين من أجلِ الحفاظ على علاقتها مع الجماعات المحيطة بها. وفي ظلِّ غيابِ فهمٍ فعليّ للإخفاء، وما يترتّب عنه من غيابٍ لأي طقوسٍ اجتماعيّة، غالبًا ما تُمسي العائلات في معزلٍ عن مُحيطها، إذ لا إقرارَ بمحنتهم لا اجتماعيًّا ولا دينيًّا.

مع مرور الوقت، يصبح الموضوع أكثر حرجًا، وقد يتجنب أفراد المجتمع مناقشته، رغم أنه يظل الشاغل الأساسي لهذه العائلات. يؤدي هذا الفهم المحدود إلى حالة من الارتباك حول كيفية دعمهم، وقد يشعر البعض بالضغط لفرض قبول فقدان الشخص المفقود. إن غياب الاعتراف المجتمعي قد يترك العائلات في حالة من العزلة، ويمنعها من المطالبة علنًا بمساعدة أحبائها المفقودين، وفي النهاية يجعلهم يشعرون بالوحدة داخل أسرهم ومجتمعاتهم وبلدانهم.

سعى هذا الفصل إلى تقديم فهمٍ واضحٍ للرحلة المعقّدة التي تمرُّ بها عائلات المفقودين. ومن خلال استعراضِ التسلسل الزمني النفسي والاجتماعي وتأثيره على المستويات الفردية والعائلية والمجتمعية، أُبرِزت التحديات العاطفية والعلائقية العميقة التي تواجهها هذه العائلات.

ورغم محاولة وصف التجربة العامة للعائلات في هذا الفصل، ينبغي ألاّ نغفل عن أنّ لكلّ عائلة قصّتها الخاصة، ولكل فرد من أفرادها طريقةٌ مختلفة في الاستجابة. لذا، عند الاستماع إلى العائلات، لا بدّ من التعامل مع تجاربها بانفتاح يتيح فهم وجهات النظر الفردية والأساليب المتنوعة التي تعتمدها في التعايش مع الفقدان.

الفصل الرابع: المبادئ التّوجيهيّة والاعتبارات المتعلّقة بالصّحة النفسيّة وبالمجال النفسيّ الاجتماعي

بناءً على الفهم الأساسي الذي عُرض في الأقسام السابقة - أي دراسة تاريخ حوادث الفقدان خلال الحرب اللبنانية، والاحتياجات الخاصة لعائلات المفقودين، والتحديات العميقة للفقدان الغامض - يركّز هذا الفصل على المقاربات العمليّة لدعم هذه العائلات والعمل معها.

ويقدّم العمل الذي أُنجز مع العائلات على مدى سنوات دروسًا قيّمة، كما أنه يسلّط الضوء على قدرتها على الصمود وآليات التكيّف لديها والثغرات الحرجة التي تتطلب اهتمامًا خاصًا. واستنادًا إلى هذه التجارب، يسعى هذا الفصل إلى سد ثغرات الماضي بالمبادئ التوجيهية العملية الواعية بالصدمات والمصمَّمة لتمكين المهنيين والمنظمات من دعم العائلات على نحوٍ أفضل في التعامل مع آثار الفقدان الغامض.

يُمكن اعتماد المبادئ التوجيهية الواردة في هذا الفصل سواء أكان في إجراء المقابلات أو تيسير الحوارات المجتمعية أو تقديم الدعم النفسي، إذ قُصِد بها أن تكون مرنة ومراعية للأبعاد الثقافية والعاطفية الفريدة للسياق اللبناني. وهي ترتكز على التعاطف والاحترام، وتؤكد على إنشاء مساحاتٍ آمنة، وتعزيز الثقة، والتكيّف مع الاحتياجات المتنوعة للعائلات التي لا تزال تبحث عن إجابات.

إنّ العيشَ في كنفِ عائلةِ مفقودٍ يضطرّك للتعامل مع تقصير السّلطات وانعدام العدالة وغياب الحقيقة، ما يُشكّل وزرًا يذرُّ الملحَ في جرحِ الفقدان. ومن الأهميّة بمكان، اتّباع المُقاربةَ المُفضّلة أدناه من أجلِ الحرص على عدم إلحاق الأذى بأفراد عائلات المفقودين عند تقديم الدّعم لهم، إذ تضمن تمكينهم من المشاركة الفاعلة في كل خطوةٍ من عملية البحث، لتعود عليهم بآثارٍ جابرة للضرر لدى انخراطهم بأي نشاط. تختلف احتياجات عائلات المفقودين إلى حدٍّ كبير، وذلكَ بحسبِ:

- الظروف الجغرافيّة والتّاريخيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة المُحيطة بحادثة الإخفاء.
- مُلابسات الإخفاء.
- الروايات المختلفة التي تتبنّاها العائلة.
- الفرد الذي يتّخذ القرار في العائلة، وعلاقته بالمفقود.

فعلى سبيل المثال، في الجماعاتِ الصّغيرة وثيقة التّلاحم، كما هو الحالُ في البلدات حيثُ موقع المقابر الجماعيّة معلومٌ لجميع العائلات، قد لا يريدُ أهالي المفقودين سوى انتشالِ الرفات وإعادة دفنه دفنًا كريمًا. أمّا في البلدات أُحاديّة الانتماء السّياسيّ، التي من مصلحتها إبقاء الحقيقة مخفيّة، قد تقتنع العائلات بالعزوفِ عن طلبِ نبشِ القبور خوفًا من التّداعيات السّياسيّة والاجتماعيّة أو احترامًا لرغباتِ الفريق السّياسي الّذي تنتمي إليه، خصوصًا إذا كان قد أعلن مفقوديه شهداءَ منذ فترةٍ طويلة، خلال الحرب اللبنانيّة أو عقبها. أمّا السّيناريو الآخر، فيبيّنُ أنّ بعضَ أفراد العائلة قد لا يرغبون في الرّجوع إلى الماضي في حالِ نجحوا في إكسابِ الإخفاء معنًى، وبالتالي، تقبّل الفقدان.

تدفع هذه السيناريوهات المعقّدة إلى بروز احتياجاتٍ تختلف باختلاف العائلات والسّياقات من حيث الحاجة إلى المعرفة. ومن الضروري أخذ كل ذلك بالاعتبار عند تقديم الدّعم للعائلات والتّنبّه إلى أنّ انتشالُ الرّفات واستعادته قد لا يكون حلاًّ يناسبُ الجميع ولا يلبّي احتياجات كلّ العائلات، إذ تتنوّع هذه الاحتياجات بين فردٍ وآخر.

فمَن يؤيّدُ انتشالَ الرّفات والتّعرف إلى هويّته واستعادته، يحتاجُ أوّلاً إلى الوثوقِ بالجهةِ الّتي تقومُ بذلك. وعليه، لا بدّ أن تتحلّى الجهود الّتي تبذلها الهيئةُ في شأنِ هذا الملف، بالشّفافيّة المُطلقة، وذلكَ من خلال تعميمها المعلومات بما يصبّ في خدمةِ الرّعاية الواعية بالصدمات.

وتكتسبُ الحاجة إلى تعميمِ المعلومات أهميّةً قُصوى، لأسبابٍ كثيرة مُبيّنة أدناه:

1. لطالما واجه أهالي المفقودين اللّبنانيين تحدّياتٍ جمّة في نضالهم في وجهِ السّلطات واللّجان الرّامية إلى إغلاق قضاياهم وإنهاء جهود المناصَرة.
وغالبًا ما أدّت هذه السوابق إلى انعدام الثقة أو التشكيك في المبادرات الرسمية. ولكي تتمكن اللجنة الحالية من كسب ثقة هذه العائلات، تُعد الشفافية أمرًا بالغ الأهمية. ويمكن تحقيق ذلك من خلال التواصل المنتظم والمفتوح، بما في ذلك عقد الاجتماعات والجلسات الإعلامية وورشات العمل، لضمان إعلام العائلات بالعملية وإشراكها فيها.

2. بعد عقود من انعدامِ الإجابات، قد يستعصي استيعاب نبأ وفاة أو عودة المفقود، أو حتى تقبّله. كما يستعصي إثبات النّبأ عمليًّا، لا سيما في غياب الأدلّة المادية أو الوثائق الموثوقة، مما يزيد من تعقيد البت في هذه القضايا، عاطفيًا وقانونيًا.

وفي بعض الحالات، قد تسفر عملية البحث عن العثور على الشخص المفقود على قيد الحياة، بينما في حالات أخرى قد تكشف أن الشخص قد توفي ولا بدّ من إعلامِ العائلة بطول مدّة عمليّة انتشال الرّفات وتحديد هوية صاحبه، ومدى تعقيدها، وبكل المُستجِدّات بصورةٍ منتظمة، كما لا بدّ من إخبارها بأنّ تحديد موقع الرفات وانتشاله وتحديد هوية صاحبه قد يستحيل في بعضِ الأحيان. تساعد هذه الشفافية في إدارة التوقعات وبناء الثقة طوال العملية.

في بعض الحالات، قد تتضرر مواقع الدفن على نحوٍ لا يمكن إصلاحه، فيصبح انتشال الجثث أو تحديد هويتها مستحيلاً. وقد يحدث الضرر بفعل الطبيعة مع مرور الوقت أو نتيجةً لأعمال متعمدة تنمُّ عن اضطرابٍ واضح. فعلى سبيل المثال، قد تُنبَش المدافن جزئيًا أو كليًا، ويُنقل الرفات إلى أماكن أخرى، ويُخلط عمدًا مع غيره لإخفاء أصوله.

وقد يظل بعض الرفات مجهولَ الهوية بسبب عوامل مثل التفتت أو الاحتراق أو غيرها من أشكال التلف. ومن شأن نقص البيانات المتعلقة بالتعامل مع حالات الإخفاء - مثل العينات المرجعية البيولوجية أو المعلومات التفصيلية من الأقارب المفقودين – أن يزيد من تعقيد جهود تحديد الهوية.

كما من شأن معالجة هذه التحديات على نحوٍ صريح مع العائلات أن تمكّن الممارسين من اعتماد مقاربة أكثر تعاطفًا ووعيًا بالصدمة، ومساعدة العائلات على فهم الجهود الجبّارة التي تنطوي عليها هذه العملية البالغة الحساسية والعقبات التي قد تعرقلها.

وفي حالة التّوصّل إلى إجابات، يجبُ إحاطة العائلة علمًا بجميع التفاصيل مثل تاريخ الوفاة التّقديري ومكانها وظروفها. وبالنسبة إلى بعض العائلات، قد تكونُ الجثّة دليلاً دامغًا على الوفاة، في حين قد يشكّك بعضها الآخر فيه. وتؤدي عوامل كثيرة دورًا في حسمِ العائلة قرارها ومدَى استعدادها في شأنِ المشاركة في عملية تقصّي الحقائق.

ومن جُملةِ هذه العوامل، مشاركة العائلات في الأنشطة السابقة التي نظّمها مختلف الأطراف المعنيّة، مثل الجلسات الإعلامية وجلسات الدعم النفسي الاجتماعي وأنشطة تخليد الذكرى وورشات العمل من أجلِ مُناصرة القضيّة.

المبادرات السابقة للأطراف المعنية مع العائلات

تختلف عائلات المفقودين في لبنان اختلافًا كبيرًا في مدى مشاركتها في الأنشطة المتعلّقة بعملية تقصّي الحقائق وفي درجة انفتاحها عليها. وعمل المنظمات المنخرطة في دعم ملف المفقودين، ومنها لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان، وجمعية "لنعمل من أجل المفقودين"، وجمعية "دعم المعتقلين والمنفيين اللّبنانيين"، واللّجنة الدوليّة للصليب الأحمر، والمركز الدولي للعدالة الانتقالية، لا يقتصر على العمليّة القانونية وجمع البيانات فحسب، إذ يشمل أنشطة تهدف إلى توفير دعم شامل للأسر، منها:

- جلسات تبادل المعلومات حول جميع جوانب الملف.
- الجلسات النفسيّة الاجتماعية الرّامية إلى استيعاب الغموض.
- ورشاتُ العمل من أجلِ تعبئة اللّجان الأسريّة في كلّ المناطق الجغرافية.
- أنشطة تخليد الذكرى لإنتاج أغراضٍ تذكاريّة تمثّل المفقود أو أثر غيابه.
- أحداث سنويّة تُنظّمُ في اليوم العالمي للمفقودين، وترمي إلى التوعية على حاجة العائلات إلى معرفة الحقيقة.
- معارض منتجات العائلات لتخليد الذكرى.
- أحداثُ المناصرة مثل تنظيم الاعتصامات وتوقيع العرائض والقيام بالمسيرات، بالإضافة إلى أنشطة أخرى مُحتملة.

إنّ استعدادَ أفراد عائلات المفقودين للمشاركة في أنواع مختلفة من الأنشطة وقدرتَهم العاطفية على الدّفاع عن قضية الإخفاء أو على مناقشتها تختلف بشكلٍ كبيرٍ ما بين اللّقاء الأوّل مع المرافقين وعقبَ بناء علاقةٍ وطيدة معهم واستيعاب تجربة الفقدان من خلال الاجتماعات مع الفِرَق. ويميلُ مَن شارَكَ في جلسات الدّعم النّفسي الاجتماعي وفي أنشطة تخليد الذكرى إلى إظهارِ قدرٍ أكبرَ من التسامح مع الغموض، فيُحكمونَ السّيطرةَ أكثر على الإحباط الناجم مِن فقدانهم الغامض.

جلسات الدعم النفسي الاجتماعي وأنشطة تخليد الذكرى

من الضروري تحديد إطار عمل وأهداف جلسات الدعم النفسي الاجتماعي وأنشطة تخليد الذكرى، وذلك لأهمية وقع هذا العمل على العائلات، واعتماده مَوردًا قيّمًا تستندُ إليه الأطراف المعنية بتنفيذ عملية تقصّي الحقائق. وقد قادت هذه البرامج اللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية "لنعمل من أجل المفقودين" من عام 2015 إلى عام 2020، وركّزت على دور المرافقين، وهم أفراد يتم اختيارهم من المجتمع، ويتولّون توجيه العائلات خلال الاجتماعات الجماعية والفعاليات الشخصية. وقد تمت زيارة العائلات بدايةً في منازلها، لتعريفها بالجلسات ودعوتها إلى تجمعات إعلامية تلتها جلسات الدعم النفسي وأنشطة تخليد الذكرى. واستمرت هذه الجلسات بالمبدأ حوالي ستة أشهر لكل مجموعة، وركّزت على التأثيرات الفردية والعائلية والمجتمعية للإخفاء. وبعد الدورة الأولى للمجموعة، شملت الأنشطة رحلات، وفعاليات اجتماعية، وأنشطة تخليد الذكرى، وصولاً إلى إقامة معارض للأعمال الفنية المتعلقة بتخليد الذكرى.

أرست هذه الجهود قاعدةً صلبة شكّلت نواةً لشبكةٍ من المشاركين الذين انضمّوا لاحقًا إلى اللجان الإقليمية المنخرطة في عمل لجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان. أمّا أهداف هذه البرامج فَهي:

1. إقامة علاقة مع عائلات المفقودين تتجاوز تلك المتعلقة بالجوانب البراغماتية للعمل (كجمع البيانات، وغير ذلك...).
2. إطلاع العائلات على التّقدّم المُحرز في الملف.
3. تعبئة العائلات وتشكيل اللّجان المحليّة.
4. بناء صلة بين اللّجان المحليّة ولجنة أهالي المخطوفين والمفقودين في لبنان.
5. الحفاظ على علاقة وطيدة مع العائلات، عبرَ شبكةٍ واسعة من المرافقين المنتشرين على امتداد الوطن.
6. دعم العائلات في بناء قدراتها على مواجهة الغموض واستيعابِ تجربة الفقدان الغامض حتى الوقت الحاضر.
7. إقامة أنشطة لتخليد الذكرى ونصب تذكارية.

وقد صُمِّمَت الجلسات على نحوٍ يضمنُ بلوغَ الأهداف العلاجية السّتة التي حدّدتها بولين بوس (2006) وهي التّالية:

1 - إيجاد المعنى: يُترك لِكُلِّ فردٍ أن يُكسِبَ تجربته معنًى خاصًّا، مما يعزز القدرة على بناءِ الحاضرِ وزرع الأملِ في النّفس. يمكن أن يتخذ هذا المعنى أشكالاً متعددة، على سبيل المثال، قد يكون روحيًا وقد يكونُ المعنى روحيًّا أو دينيًّا، كَالتفكيرِ، مثلاً، "هذه مشيئة الله" أو قد يكونُ وطنيًّا، كالقولِ، مثلاً، إنّ المفقود "هو شهيد". وخلال الجلسات، قد يتشارك أفرادٌ في المجموعة نفسها معنىً واحدًا، ويكونُ بعضهم مُلهمًا لبعضهم الآخر، مما يساعد على تقبّل الاختلاف في المعنى داخل عائلاتهم.

2 - ضبط درجة السيطرة: "هل أحكمُ السّيطرةَ على ما يحدث في حياتي وإلى أي درجة؟ هل الحياة عشوائيةٌ بالكامل وخارجة عن إرادتي أم أنّها تحت سيطرتي إلى حدٍّ ما؟ ما مقدارُ سُلطتِي على قصّتي؟"

كلما زاد التمسك بالقواعد التي تحدد 'كيف يفترض أن تكون الحياة'، كلما تراجع التقبّل في التعامل مع الصعوبات. على سبيل المثال، قد يعتقد البعض أن الأمور السيئة لا تحدث إلا للسيئين، أو أن الالتزام بالقوانين المجتمعية يضمن السلامة، أو أن العمل الجاد يؤدي حتماً إلى نتائج 'جيدة'، حتى وإن بَدَت 'سيئة'. ومع أن هذه المعتقدات راسخة في العقول، فلا أساس لها على أرض الواقع وقد تسبب معاناة لمن يتمسك بها. ومن شأن تقييم هذه المعاني أن يساعد في معالجة المفارقة بين الإخفاء والبحث عن معنىً له.

3 - إعادة تكوين الهوية: "من أنا اليوم بالنسبة إلى المفقود بعد أن مضَت ثلاثون أو أربعون سنة على إخفائه؟ أما زلتُ زوجته؟ هل بقي الشّخص الّذي كان عليه؟ إن عادَ، هل سنتحدَّثُ معًا كسابِقِ عهدنا؟"

من الصّعب التّخلي عن الاعتقاد بأنَّ الأمور ستعود إلى نصابِها، لكنَّ الاعتقادَ هذا هو ما يُبقي القريبَ في حالةٍ من الجمود العلائقي. ومن شأنِ التّبصّر في كيفيّة اختلافِ الأمور، أن يسمحَ للعائلة بإعادةِ بناء علاقات مُجدية، على الرّغم من غياب المفقود.

4 - تطبيع التّناقض: "لقد تواروا وتركوني، أتمنّى أن يكونوا أحياء كما أتمنّى أن أتخلّص من ذلك [الغموض] [...] لقد تركني وخلّف وراءه كل المسؤوليات، ولكنّني أحبّه."

تُولِّدُ المشاعرُ المتناقضة الشعورَ بالذّنب والارتباك في نفوسِ أقارب المفقود، فَيشعرون بالعجزِ عن تقبّل هذا التناقض وبقلّةِ الحيلة. لذا، مِن شأنِ تطبيع تداخلِ هذه المشاعر المُتناقضة أن يساعدَ في تنفيسِ الغضبِ الذي ينبعُ من الشّعور بالذّنب وتأنيب الذّات.

5 - مُراجعة التعلّق: إنَّ التّعلّقَ بالمفقودِ لهوَ عبءٌ ثقيل. فبعض العائلات لم ترَ مفقودَها منذ ما يربو على ثلاثين عامًا، ويُضطّرُ أفرادُها لتذكير أنفسهم بهِ ولنسيانه في آنٍ معًا. وهم أحيانًا ما ينسونَهُ فعلاً، فيعتريهم شعورٌ شديدٌ بالذنب على فعلِهم ذلك. ومن أجلِ التّمكّنِ من النسيانِ والمضيّ قدمًا، لا بدّ أن يكون الفقدانُ واضحًا.

ومن شأنِ إدراكِ الدّور الذي يؤديه هذا الشّعور بالذنب في إجبارِ الفردِ على تذكّر المفقود دومًا، أن يساعدَ العائلات في إزالةِ هذا العبء عن كاهلها، لا سيّما عندما تكونُ قادرة على تخليد ذكرى المفقود تخليدًا ملموسًا. وتتعلّمُ العائلات أنْ لا عليها فكّ هذا التّعلّق، ولا الوصول إلى 'نهاية'.

6 -اكتشاف الأمل: إنّ مُجمل العملية المضمّنة في المستويات الخمسة السابقة، هي مُجرّدُ مدخلٍ إلى إعادةِ اكتشاف الأمل.

فمِن شأنِ الإقرارِ بالقوى المتعارضة المترتّبة عن الفقدان الغامض، والألم النّاجم من هذا الموقفِ وعبثيّتِه، أن يسمحَ لأفراد العائلة بإدراكِ السّبل الّتي جَعلَت، ويُمكن أن تجعلَ، حياتهم مُجدية، على الرّغم من غياب عزيزهم وانتفاء النّهاية. وليسَ مسارُ العملِ على هذه المستويات أو الأهداف السّتة، مسارًا مُستقيمًا، بل هو جهدٌ متواصل، يستمرُّ حتى تخليد الذكرى والنشاط النّضالي المستقبلي.

بدأنا البحث في العام 1976، ثمَّ تابعناهُ مع وداد حلواني واللجنة الدولية للصليب الأحمر وجمعية لنعمل من أجل المفقودِين. لولا جائحة كوفيد-19، لواصلنَا التّجمّع من أجلِ مُمارسة الضغط للحصول على إجابات. - شقيقة أحد المفقودين، 2021.

تخليد الذّكرى

"على الرّغم من أنّنا قد لا نقدرُ على بناءِ شيء عظيم على غرارِ ما يُمكن أن تبنيه الدّولة، نودّ أن نصنعَ شيئًا بمبادرتِنا الخاصّة حتّى لو لم تفعل الدولة ذلك. نريد أن تتذكرَ الأجيال القادمة مساهمةَ [أخينا] في سبيلِ الوطن. لا يزال الناس يتذكرون مساهمات الشهداء الّذين بذلوا أرواحهم في سبيلِ الوطن حتَى في الماضي البعيد "

شقيق أحد المفقودين، جورخا، 18 حزيران/ يونيو 2008

"سيعرف الناس عن أسرةِ المفقود لأنَّ شهرتَه ستُكتب على اللّوح أو في أي مكانٍ آخر: سيحلُّ السّلام إن تمكّنا من تحقيق ذلك."

زوجة أحد المفقودين، باردیا، 9 شباط / فبراير 2011

في ظلِّ غياب الطّقوس الاجتماعيّة أو الدّينيّة الخاصّة بتخليدِ ذكرى المفقودين، تكافحُ العائلات بمفردها ولا تتلقى أيّ إقرارٍ بمحنتها المستمرة ولا تصديقًا لها. فيتحمّلُ أهلُ المفقود وحدهم عبءَ الذّاكرة وآلام العزلة والنّضال من أجل إفهامِ وضعهم لِمُحيطِهم. ومن شأنِ الطّقوس الاجتماعيّة والدينيّة أن تواسي العائلات المفجوعة من خلال:

- الإقرار بألمها وإثبات الفقدان.
- تَيْسِير استيعابِ الفقدانِ على المستويَيْن الفردي والعلائقي.
- تقديم الدّعم العاطفيّ.
- إكساب الفقدان معنى مُستقًى من النّظرة الدينية والاجتماعيّة، ومن خلال دعم المجتمع.

وتخليدُ الذّكرى يفي بدورِ الطّقوس الاجتماعيّة والدينيّة الغائبة في حالةِ الإخفاء، وذلك من خلال منحِ العائلات إقرارًا بنضالها المستمرّ بعد عقودٍ من وقوع الحدث. ولطالما كانَت العائلات، ولا تزال، جزءًا من عدّة أنواعٍ من أنشطة تخليدِ الذكرى مثل 'الكراسي الفارغة' و 'صندوق الذاكرة'. وترمي هذه الأنشطة إلى إنتاج تذكارات فرديّة تمثّل المفقود نفسَهُ وغيابَه، كما إلى إقامةِ نصبٍ تذكاريّ جماعيّ في الشارع لاستحضارِ غيابِ المفقودين المستمرّ.

أمَّا المعارضُ المُخصّصة لنِتاجِ أنشطةِ تخليد الذّكرى، فتسمحُ لأفراد العائلات بالتّعبير عن آلامهم دونَما الحاجة إلى النّبس ببنتِ شفة. وإذا شعروا بالرغبة في التّحدّث مع الزوار، فإنّها تُهيّئ لهم مساحة ينطلقون منها بشعورٍ بالقوة الدّاخلية. ويُرجّحُ أن يزدادَ استعدادُ العائلات للانضمامِ إلى عملية تقصّي الحقائق وإعلاء الصّوتِ بِقضيّتها، لا سيّما تلك الّتي شاركَت سابقًا في الأنشطة آنفة الذّكر. ومع ذلك، لا بدّ من تقديم الدّعم للعائلات باتّباعِ مُقاربةٍ تُحدّدُ لِكُلِّ حالةٍ على حدة، استجابةً لاختلاف الاحتياجات والقصص بين عائلةٍ وأخرى. هذا وتُعدُّ المرافقة أمرًا ضروريًّا للغاية في كلِّ خطوةٍ من أجلِ ضمانِ أن تتمتّعَ العائلات بالقدرةِ الفُضلَى على التّعامل مع التغييرات الطّارئَة وعلى استيعابها خلال عملية تقصّي الحقائق.

بالنسبة إلى العائلات، فإنّ تذكّر المفقودين هو بمثابة مقاومةِ الجناة الّتي تُعيدُ إنسانية المفقودين: إحياء الذكرى إنّما هو تحدٍّ للإخفاء.

الاحتفالات التذكاريّة وأعمال التّكريم تُكسبُ تجربة العائلات معنى إيجابيًّا، وتؤكّدُ على قيمة المفقودين والعائلة...

> "يسمحُ تخليد الذكرى للعائلات بمراجعة التعلّق بالمفقود من خلالِ تقييم ذكراه وإبعاده عن حياتها اليومية..."
>
> روبينز، 2014

المقاربة الواعية بالصدمات

تأخذ المقاربة المراعية للصدمات في الاعتبار الاحتياجات الفريدة للأفراد الذين تعرضوا لأحداث صادمة أثناء تخطيط وتنفيذ وتقييم أي مشروع أو مبادرة أو تدخل. والهدف من هذه المقاربة هو تلافي التعرض للصدمة من جديد والحد من الاضطراب العاطفي. وغالبًا ما لا تكون الأطراف المعنية على دراية بكيفية تأثير الصدمة على نفسية وسلوك الأفراد. وقد يؤدي تجاهل ردود الفعل الناتجة عن ذلك إلى وصف الأشخاص ظلماً بأنهم 'مرضى' أو عاجزون. وقد يتسبب عدم الفهم والوصم بمزيد من الضرر للأفراد المتأثرين والأطراف المعنية التي تعمل معهم، وهو ما يؤثر في نهاية المطاف على العمل على المدى الطويل.

ومن شأن تدريب الأطراف المعنية أن يساعد على زيادة الوعي بآثار الصدمة. ولا بد للمنظمات أن تضع معايير واضحة لكيفية التفاعل مع عائلات المفقودين، وللقيادة أن تضمن اتباع هذه المعايير. وقد يعزز احترام السرية والاعتراف بنقاط القوة الفردية الشعور بالسيطرة لدى الأطراف المعنية والعائلات.

يُعدّ اعتماد مقاربة واعية بالصدمات عملية تعلّم مستمرّة تستند إلى بعض المبادئ التأسيسيّة بدلاً من استنادِها إلى مجموعةِ مبادئ توجيهية ثابتة. ويعتبرُ استمرارُ أنشطة مرافقة العائلات جانبًا بالغَ الأهميةِ من أجل ضمانِ تنفيذ هذه المقاربة تنفيذًا سليمًا.

فالمرافقةُ تستندُ إلى فرضية أنّه من الممكن مساعدة العائلات من خلال العلاقات القائمة على التّعاطف والدّعم المتبادل. والمرافقة تعني "السّيرَ الى جانب شخصٍ ما" ومُساندته حيثما كانَ ذلك ضروريًّا. والهدف الرئيسي للمرافقة هو دعم قدرات الأفراد والعائلات لِمواجهة الصّعوبات المتّصلة باختفاء ذويهم ولاستئناف حياتهم الاجتماعية في نهاية المطاف. وهم يستطيعونَ القيام بذلك باستغلالِ مواردهم الذّاتيّة والموارد المتاحة في المجتمع - المحلّي والوطني- وبإنشاء شبكة داعمة (الصليب الأحمر الدولي، 2015).

يعتبرُ بناءُ العلاقةِ على مدى فترة زمنيّةٍ طويلة أمرًا ضروريًّا لإشراك العائلات في خطوات التقدّم، لا سيّما على المستوى المجتمعي. فمن شأنِ الثّقة والاحترام الّذي تكّنهُ العائلات لِلمرافقين في كلِّ مجتمع أن يُشكِّلَ موردًا رئيسًا لعمل الهيئة، ذلكَ أنّ المشاركة في الأنشطة الجماعيّة هي بمثابةِ حجرِ زاويةٍ في المقاربة الواعية بالصدمات المُعتمدة في حالة المفقودين.

وتعودُ أصول الرّعاية الواعية بالصّدمات إلى العلاج الطبيّ الّذي تلقّاهُ جرحَى المحاربينَ القدامى في حرب الفيتنام الواقعة في سبعينات القرن الماضي (أيووا ووتش، 2018). وبعدَ مضيّ سنواتٍ عدّة، توسّعَ نطاقُ المقاربة لتشملَ المدنيين أيضًا.

وكُلّما تقدَّم البحثُ حول وقعِ الصّدمات على العقل والجسد، اكتسبَت المقاربةُ زخمًا أكبرَ حتّى بلغَت مبلغَها اليوم.

كيف يُطبّق هذا التعريف على عائلات المفقودين؟

تُعدُّ السيطرة مَكمَنُ المشكلة عند التعامل مع الصّدمة عمومًا ومع الغموض خصوصًا. فعدمُ فهمِ الوضعِ فهمًا واضحًا يُعيقُ الفرد عن التعامل معه (بلوغ نهايته) أو التأقلم معه. وتقعُ استعادة الشعور بالسّيطرة في صميمِ المقاربة الواعية بالصدمات ضمن نموذج "4Cs" (كيمبرغ،2017) المستخدم هنا والمفصّل أدناه. فَلِمَ يُعدُّ الشعور بالسيطرة في غاية الأهمية عند التّعامل مع الصدمة؟ الجوابُ، بصورةٍ أساسية، هو أنّ الأحداث الأليمة تُشعرُنا بأنَّ الأمور خارجة عن سيطرتنا، على الرّغم من بذل قُصارَى جهودنا للتعامل مع الوضع. فنحن نُحاربُ هذه العبثيّة في حياتِنا الّتي لها معنى، كَالمهنة، والعقود الشّخصية، والعائلة، والأصدقاء، والإنجازات... لكن كيف نُحاربُ حدثًا هو، في طبيعته، مُجرّدٌ من أيّ معنى؟

يمكن أن يُعاد إحياء الصّدمة في أيّ حالةٍ أو بيئةٍ تُشكِّلُ تذكرةً للفردِ بالتّجربة الصادمة أو مثيرًا لها، سواءٌ أكان ذلكَ بشكلٍ رمزيّ أو فعليّ. ومُثيرُ الصّدمةِ هو كُلُّ ما يُفقِدُ الفردُ الشّعور بالقوة والسيطرة والأمان. وعليه، فإنّ مَا قد يُعيد إحياء صدمة العائلات هو شعورُ الأقارب بفقدان السيطرة على مآلِ الحقيقةِ حولَ مصيرِ قريبهم المفقود. أمَّا مُثيرات الصّدمة المُحتملة بالنّسبة إلى أفرادِ العائلات، فَهي تلكَ الّتي قد تعيدُهم إلى حادثة الإخفاء القسري أو عواقبها الصّادمة، بحدّ ذاتها، فِي بعض الأحيان، وهو ما قد عُرِضَ مليًّا فِي مقدمة هذا الدّليل . وعليه، يُمكن وصف صدمة العائلات بأنّها معقّدة ودائمة الحضور ومتسلسلة.

ويمكن أن تتّخذَ مُثيرات الصّدمة طابعًا حسّيًّا (كالمشاهد أو الأصوات أو الروائح) أو عاطفيًّا أو سرديًّا أو سلوكيًّا. ومِن جُملةِ هذه المثيرات) ويب إم دي،2024):

- **الأشخاص:** أي رؤية شخصٍ يرتبطُ بالواقِعة أو تُشبهُ ملامحه ملامِحَ المفقود.
- **الأفكار والمشاعر:** أي المشاعر الّتي تولّدَت لحظةَ الإخفاء أو بعده، كالخوفِ والعجز.
- **الأغراض:** أي رؤية غرضٍ مرتبطٍ بالواقِعة كمُقتنياتِ المفقود أو الأغراضِ الّتي تذكّر بالواقِعة.
- **الروائح:** يمكنُ أن تكون الروائح مُثيرةً للصدمة، ومنها عُطر المفقود، أو الرّوائح المرتبطة بفترة الإخفاء أو البحث النّشِط.
- **الأماكن:** أي العودة إلى مكان الإخفاء إذا كان الشخص حاضرًا وقتَذاك، مثل مكان الحاجز أو المعتقل.
- **وسائل الإعلام:** أي التقارير الإخبارية أو مقاطع الفيديو أو الصور.
- **الأصوات:** أي بعضُ الأصوات الخاصّة أو الأغاني أو النّغمات المحدّدة مثل أزيز الطّلقات النّارية أو صوت المفقود أو الأغاني التي اعتادَ سماعها...
- **المَذاق:** تذوق نكهات تعيد إلى ذاكرتهم الحدث، مثل الأطعمة أو المشروبات التي كانت حاضرة في تلك الفترة.
- **الحالات:** أي الحالات الّتي تُحاكِي لحظةَ الإخفاء، فتذكّر الشخص أو العائلات بالحادثة مثل الشعور بالعجز، وفقدان السيطرة، والخوف...
- **الذكريات السّنوية:** وهي عبارة عن استعادة التّاريخ الّذي رأت فيه العائلة المفقودَ آخرَ مرة أو تاريخ وقوع معركة محدّدة يُعتقد أنّ المفقود قد أخفِيَ خلالها...
- **الكلمات:** أي الكلمات حمّالةُ مشاعرَ، لا سيّما عندَ الحديث عن الرفات.

نموذج ال"4Cs"

يتألّف نموذج "4Cs" من النّقاط التّالية: الهدوء، والاحتواء، والرّعاية، والتّأقلم. تساعد المبادئ التوجيهية الأربعة الخاصّة بالمقاربة الواعية بالصدمات في التدخّل على نحوٍ هادئ وداعمٍ وغير مصدرٍ للأحكام، ومعزّزٍ للقدرة على الصمود، وهو ما مِن شأنه أن يعيدَ الشّعور بالسيطرة إلى حياة العائلة الّتي تعرّضت لصدماتٍ نفسيّة. لذا، مِن المُفترضِ أن يلتزمَ هذه المبادئ الأشخاصُ الّذين هم في الخطوط الأمامية للتواصلِ المباشر مع العائلات، وكذلك كُلُّ مَن يعمل عن كثبٍ على هذا الملف وجنبًا إلى جنبٍ مع العائلات. فعائلات المفقودين تحتاجُ إلى أن تكونَ جزءًا في كلِّ خطوةٍ من خطوات تصميم الأنشطة وتنفيذها على حدّ سواء.

الهدوء عند التواصل مع عائلات المفقودين، من المهم الحفاظ على هدوء واتزان.

- **اِلتَفِت إلى مشاعرِكَ عند تعاملكَ مع العائلات.** فقد يكونُ العملُ مع العائلات صعبًا لعدّة أسبابٍ، منها إحباط أفراد العائلة المزمن وتكذيبهم لِكُلِّ أقاويلِكَ، وضآلة الإجابات الّتي تأتِيهم بها، أو انعدامها، بالإضافة إلى بطءِ وتيرة تقدّم الملف، وتعرّض العائلات للصّدمة غير المباشرة من خِلالِ سردِ القصص.
- **أنصِت إلى قصصِ العائلات وصدماتها وتفهّم وقعها** وموازِنَ وثوقهم بالسّلطات وخيبة أملهم مِن أيِّ جهود تُبذلُ في تقصّي الحقائق، وذلكَ حتّى تتمكّنَ من اتّخاذِ موقفٍ هادئٍ ومتروٍّ.
- **صَمِّم ورشات العملِ وجلسات الإعلامِ بالمعلومات،** تصميمًا يُوجِدُ بيئةً هادئة، ومحتوى، واضح، وشفّاف.
- وسِّع فهمكَ للسّبل الّتي يُمكنُ الصمود والعدالة والإنصاف من خلالِها إقامةَ مجتمعاتٍ وبيئات سلميّة وهادئة.

الاحتواء عند التفاعل مع عائلات المفقودين، فإن الاحترافية والحساسية هما الأساس.

- **تجنّب طلبَ تكرار قصّة** الإخفاء إن لم يكن ذلكَ مُجديًا. واحرَص على أن يكونَ جمعُ المعلومات منظّمًا وهادفًا ومُوحّدًا.
- **أبقِ على الاعتبار الإيجابي** مع العائلات، لكن، ضَع حدودًا مهنيّة صحيّة للعلاقة.
- **إبق خارج دائرة الضحية**[14] من خلال الالتزام بحدود صحيّة:
  - **التزِم حدودَك،** فلديكَ حدودٌ تضبطُ قدرَ المُساعدة الّتي يُمكنكَ تقديمها، فأنتَ لستَ مُنقذ العائلات.
  - **اِحذَر تأنيبَ الذّات والشّعور بالذنب،** فأنتَ لستَ الجاني؛ وإن كانَت قدرتك على المساعدة محدودة، فهذا لا يعني أنكَ تُسبِّبُ الأذَى.
  - **اِحترس من الوقوع ضحيةَ** قصص العائلات، فقصّتهم ليست قصتكَ واحرَص على وضع حدٍّ لمدى انخراطك فيها في كل لحظة.
- **اِكسَب ثقة العائلات** من خلال التّصرّفِ بموثوقيّة، والإتيانِ بإجاباتٍ مباشرة.
- **اِجعل ردود الفعل النّاجمة مِن الصّدمةِ أمرًا عاديًّا** لَدى العائلات، وذلكَ من خلال الإبقاءِ على مسافة آمنة مع الحفاظِ على اعتبارها اعتبارًا إيجابيًّا.
- **توقّع أن تُبالِغَ العائلات في انفعالاتها أحيانًا.**
- **درِّب المرافقين** على مهاراتِ دعمٍ متقدّمة. قُم بالتقييم الذاتي للاحتياجات، بهدف تحسين العمل وأقلمته من أجلِ ضمانِ اعتماد مقاربة واعية بالصدمات وابحث عن أجزاء القصصِ الّتي تجهلها، واطّلع قدرَ الإمكان على الرّوايات التّاريخيّة والشّخصيّة المختلفة.

-(14) أي التّحوّل إلى الضحيّةِ أو المنقذ أو الجاني في إطارِ الواقِعة الّتي لم يحصلوا على العدالةِ فيها بعد.

- **أبرِم الشّراكات متعدّدة التخصّصات ومتعدّدة القطاعات** التي تشمل فرق العمل الشّاملة في شأنِ الصحّة النفسية وأنثروبولوجيا الطب الشرعي والأخصائيين القانونيّين. فتبادل المعرفة والتجارب بين هذه الفرق متعددة التخصصات يساهم في تمكينها، مع بقية الأطراف المعنية، من بناء فهم شامل للتوقعات والمخاطر، وهو ما يُعد أمرًا حيويًا لوضع إجراءات تحدّ من تعرّض العائلات للصدمة من جديد. وعندما تكون العائلات على دراية جيدة بالجهود متعددة الأوجه في تقصّي الحقائق، يُساعدها ذلك في بناء واقعٍ مشترك وإدارة التوقعات على نحوٍ سليم. وهذا من شأنه أن يمنحها شعورًا بالتحكم في العملية، وبالتالي الحد من خطر تعرّضها للصدمة من جديد.

الرعاية خلق بيئة مليئة بالتعاطف والدعم يتطلب العناية بالنفس إلى جانب العناية بالآخرين.

- **احرَص على الرّعاية بالذّات والتّعاطف مع الذّات** أثناء تقديم الرّعاية للآخرين. فمن الطبيعي التعاطف مع العائلات، ولكن إلى أيّ مدى؟
- **أعطِ الأولويّة لمقاربةٍ داعمة** حينَ تفصح العائلات عن معلوماتٍ تتعلّق بصدماتها من أجلِ أهدافٍ تقنيّة أو عمليّة أخرى.
- **اجعَل أعراض التّعرّض للصدمةِ أمرًا عاديًّا،** وأزِل وصمة العار المرتبطة بها.
- **احرَص على التّواضع الثّقافيّ والدّينيّ** (قد يساعدك ذلك في اختيارِ مرافقينَ يكونونَ متحدّرينَ من مجتمع العائلة نفسه).
- **طبّق سياساتٍ تعزّز الرّعاية** بالذات والتعاطف والإنصاف داخل الهيئة، واعقِد الشّراكات متعدّدة التخصّصات والقطاعات.

التّأقلم الدعم المستمر والتدخلات المبنية على التعاطف تساعد العائلات على التكيف وبناء القدرة على التحمل في مواجهة الفقد المستمر.

- **رَكِّز على تدّخلات المُرافقة** الّتي ترمي إلى بناء القدرة على الصمود، وذلكَ على غرار مجموعات الدعم النفسي الاجتماعي.
- **اِضمَن المُحاسبةَ** لِصَالِح العائلات، وذلكَ عن طريق إنشاء قنوات اتّصال مع الأفراد عبرَ لجان العائلات المحليّة ومجموعات المرافقة.
- **نفّذ أنشطة المرافقة** في كلِّ خطوة، حتّى خلال "فترة فتورِ العمل"، وذلكَ لضمان عدم عزل العائلات وتلقيها الدعم الاجتماعي.
- **ادعَم تلبيةَ احتياجاتِ العائلات** الّتي حدّدَها تقييمُ الاحتياجات، فقد تؤدّي الاحتياجات إلى مُفاقمةِ عبء الغياب.

إنّ المبادئ التوجيهية والمبادئ التأسيسية المفصّلة في المقدّمة (السلامة - الثقة - الخَيار - التعاون - التمكين - احترام التنوّع) تُمّهدُ السّبيلَ أمامَ اعتمادِ مقاربةٍ واعية بالصّدمات تتخّذُ شكلاً عمليًّا في العناوين المُبيّنة أدناه.

كيف تُطبّقُ المقاربة الواعية بالصدمات مع أسر المفقودين

تُشكّلُ الإجابة عن مصير المفقود الخطوةَ الأولى الآيلة إلى تصالح أقارب المفقود مع فقدانهم الغامض الأليم. ويُمكنُ أن تؤدّي الحقيقة في شأن مصير المفقود دورًا أساسيًا في عملية بناء السّلام بين المجتمعات.

ولا بدَّ من إشراك العائلات في كلِّ خطوة من الخطوات؛ فهي ليست عاملاً سلبيًّا في هذه العملية. ويُشكّل إشراكُها عاملاً أساسيًّا في كَسبِ ثقتها بالأطراف المعنية وفي شعورها بالسيطرة على قصّتها. ومع ذلك، يجب إقامة توازنٍ مُحكمٍ بين تبليغِ العائلات بالمعلوماتِ ومنحها الخيارات. لذا، في كُلِّ مرّةٍ يؤدّي فيها الأخصّائيّ أو

الطّرف المعنيّ دورَه في الكشف عن الحقيقة، تحتاجُ العائلة إلى المُرافقة والتّخيير، وذلكَ عبرَ جلسات الإعلامِ بالمعلومات والزيارات المنزلية.

"رأى بعض الناس أشخاصًا كانوا يحفرون القبور في الأرض هنا في بيروت. كانَ هذا المكان فارغًا، لكنّه لم يعد كذلك، لقد غطّته المباني، فأين سيحفرون وينتشلون الرفات في هذه المرحلة ؟!"
شقيق أحد المفقودين، 2021

جمع البيانات والعيّنات المرجعيّة البيولوجيّة

تتمثَل الخطوةُ الأولى من العمليّة في جمعِ بياناتٍ حول المفقود وظروف إخفائه عيّنات مرجعية بيولوجية (تتضمّن الحمض النووي) وخرائط القبور. في لبنان، اضطلعت كلٌّ من لجنة الصليب الأحمر الدولية وجمعية لنعمل من أجل المفقودين بدور جمع هذه العيّنات.

وكما كانَ الحال أثناء عمليّتَيْ جمع بيانات ما قبل الإخفاء وعيّنات الحمض النووي، كذلكَ الحالُ في خطواتِ تحديد الهويّة الّتي تليهما، فإنَّ الهدف الأساسيّ من التّواصل مع العائلات يكمنُ في إدارة التوقّعات. فقد تتردّد العائلات في المشاركة في هذه العمليّة، وأغلبُ الظّنّ أنّها تعبّرِ، بذلكَ، عن غضبِها وإحباطِها بعد سنواتٍ من لزومها الصمت. وفي الواقع، لم تقبل بعض العائلات الانضمامَ إلى إحدى هاتين الخطوتين أو إلى كليهما، ويُعزَى ذلكَ إلى أسبابٍ شخصيّة، وإلى قيودٍ سياسيّة أو طائفيّة. لذا يجب احترام خيار العائلة مهما يكن. وعادةً ما تقوم السلطات بجمع البيانات في البلاد المعنيّة، لكن، في لبنان، اضطلعت لجنة الصّليب الأحمر الدّولية بدورِ السّلطات وعملت على تسليم الهيئةِ بيانات ما قبل الإخفاء وعيّنات الحمض النووي الّتي جمعتها.

استعادة الرفات البشري.

حتّى وإن كانت بعض العائلات قد عبّأت بياناتها وقدّمت العيّنات البيولوجية، لا ينفي ذلك احتمالَ مواجهتها لحقائقَ قد لا تكون مهيأةً لها. وكما ذُكر سابقًا، من الشّائع أن تختلفَ المعاني ضمنَ العائلة نفسها؛ فقد يُظهر الأفراد قدراتٍ مختلفة على التّعامل مع الأخبار التي سيتلقّونها. ومِن الممكن أن يكونَ بعضهم أكثرَ استعدادًا لاستيعابِ خبر الوفاة أو الإخفاء مِن بعضهم الآخر. وفي هذه الحال، تقتضِي الحاجةُ اللّجوء إلى مراحلَ عدّة من المرافقة، فقد تقتصرُ حاجة بعض الأفرادِ على المرافقة الجماعيّة والمجتمعيّة فحسب، ومنها الجلسات الجماعية والأنشطة الجماعية الرّمزية، فيما قد يحتاجُ بعضهم الآخر إلى مرافقةٍ فرديّة، وذلكَ من خلال قيامِ أخصائيين نفسيينَ بالزّياراتِ المنزليّة أو تقديم الرّعاية اللاّزمة.

وتُعدّ المرافقة موردًا رئيسًا بالنّسبة إلى العائلات، فهي تضمنُ استعدادها للخطوات المقبلة، وحسنَ إطلاعها على المستجدات، ومساندتها، حتّى بعدَ انتهاء العمليّة، وبغضّ النّظر عن نتيجتها. لذلك، يجب تدريب المرافقين وإعلامهم بكلّ خطوات عملية البحث وبجميع النتائج وبردود فعل العائلات المحتملة. قد تكون عمليّة تحديدِ الهوية صعبة للغاية أيضًا على المرافقين أنفسهم، لا سيّما أولئك الّذين قد عرفوا العائلات لفترةٍ طويلة وأصبحت تربطهم علاقة وطيدة معها، أو أولئك الّذين هم أنفسهم أقارب لمفقودين.

عملية استعادة الرفات

بعد تحديد موقع الرفات من خلال المقابلات مع السكان المحليين والشهود والعائلات والمقاتلين السابقين، تنتقل الجهود إلى توثيق الموقع على الخريطة، مع تضمين كافة المعلومات ذات الصلة. فعمليّة استعادة الرفات عمليّة دقيقة وغالبًا ما تتطلّب وقتًا طويلاً لضمان سلامَة استعادَة الرّفات ونقله وتخزينه، لا سيّما عندَ نَبشِ المقابر الجماعية. وتكمنُ الخطوةُ الأكثر أهميّة في إبلاغ العائلة بالعملية لضمان فهمها الكامل لها وتمكينها من اتّخاذ خياراتٍ واعية ومُستنيرة.

"تطلب الأسر معرفة التّفاصيل العلميّة. فَيجب على أخصائي الطّب الشّرعي الّذي يقوم بالتّحليل إبلاغ الأسر بهذه التفاصيل. الشفافية هي الأساس. وينبغي ألاّ تُخفَى أي معلومةٍ بهدفِ مُراعاةِ مشاعر الأسر، وعوضًا عن ذلك، يجبُ استخدام المصطلحات العلميّة، ووضع التقارير في متناول الأسر حتّى تفهمَ الأساليب التي اعتمدها الأخصائي والنّتائج التي توصّل إليها. جَدّي مفقود ومن الضروري إشراك الأسرة في العلمية كي تحصلَ، قدرَ الإمكانِ، على معلوماتٍ دقيقة وتقديرٍ عن طول فترة العمليّة، فبذلكَ ستفهم الأسر مدى تعقيد العمليّة، وهو ما من شأنه أن يُخفِّف مِن شدّةِ إحباطهم ."

جويس نصار، 2021

"لقد أعددنا صورًا عن عمليات انتشالِ رفات سابقة بغيةَ شرح الجانب الخاص بالطّب الشّرعي والعلوم الجنائية لعمليات انتشالِ الرّفات حتى تدركَ (عائلات المفقودين) أنّ العملية قد تستغرق وقتًا طويلاً أو حتّى أشهر عدّة..."

كلوديا ريفيرا، 2021

إنَّ التّدرّجَ في عرضِ الحقيقة من خلالِ انتقاءِ وسائل الإعلام (أي الصّور ومقاطع الفيديو) والكلمات الّتي تشرح للعائلات أنّ العمليّة دقيقة، واختيار القدر الكافي من المعلومات المطلوبِ إبلاغها، هي مهمّةُ أخصائي العلوم الجنائية وأخصائي الصّحة النّفسيّة. وتشملُ المعلومات الأساسيّة ما يلي:

- الطّريقة الّتي سيتم من خلالها تحديد هوية الرفات.
- مدّة العملية ومدى تعقيدها والخطوات التي تليها.
- الشخص الذي سيتمكن من رؤية الرّفات والاطّلاع على المعلومات التي جُمعت.
- عدم ضمان تحديد هوية صاحب الرّفات بمجرد استعادته.
- مكان تخزين الرفات.
- الجهة التي يجب الاتصال بها للحصول على مزيد من المعلومات.
- احتمال التمكّن من استعادة جزءٍ من الرّفات وتحديد هوية صاحبه.
- التوقعّات المرجوّة في شأن حالة الرفات.

ومن شأنِ إظهار الاحترافية المطلوبة لاستعادةِ الرفات أن يبعثَ الطمأنينةَ في العائلات. فهي تحتاجُ إلى معرفة المستوى المطلوب من الرّعاية والاحترام والتقنية الدقيقة. ويمكن تفسير ذلك من خلال المواد الإعلامية مثل الصور أو مقاطع الفيديو.

التواصل مع العائلات في شأن استعادة الرفات

من الضروري التواصل بشكل واضح وحساس مع العائلات أثناء عملية الاسترداد لضمان أنهم على دراية كاملة ومدعومين بشكل صحيح.

- احرص على استخدام المُصطلحاتِ العلميّة و/أو المحايدة.
- تجنّب إعطاء العائلات معلوماتٍ غير ضرورية لفهمِ العملية.
- تجنّب استخدام الكلمات حمّالة العواطف[15] عندَ التحدّث عن العملية والرفات والمفقودين.

(15)- كلمات أو جمل قد تحمل معاني ثقيلة تستخدم لإثارة ردود فعل عاطفية

- تجنّب ذِكر أسماء المفقودين أثناء وصف العملية فبدلاً من ذلك يمكن استخدام كلمات محايدة مثل 'رفات الفرد'.
- حاول الإجابة على جميع الأسئلة التي قد تطرحها العائلة.
- ابتعِد عن تحديد أطرٍ زمنيّة للعمليّة.
- امتنِع عن إعطاء وعود في شأن الإطار الزمني أو النتائج.
- تأكّد من اطلاعِ جميع أفراد العائلة المقربين على المعلومات.
- تأكّد من احترام العادات الاجتماعيّة والمعتقدات الدينيّة عبرَ اختيار مرافقين ومتخصّصين على درايةٍ بالثقافة المحليّة.
- اقترح دومًا جهة اتّصالٍ للاستفسارات اللاحقة.

قرار حضور العائلات إلى الموقع

قد تطلب بعض العائلات الحضور إلى الموقع أثناء استعادة الرفات، وقد يكون ذلك مثيرًا للجدل بسبب المثيراتِ الواضحة التي قد تعيدُ إحياء صدمة الأفراد. لذلك، يُنصح بعدم حضورهم.

وتنصح بعض الدّلائِل بالسماح للعائلات بالحضورِ إلى الموقع، ما عدَا بعض الأفراد المعروفَة هشاشتهم، لكنَّ التّفرقة هذه قد تُوجِدُ خلافاتٍ غير مرغوبٍ فيها. (لِمَ يُسمح لهم بالحضور ولم يُسمح لي بذلك؟). ويكمنُ الهدف من حضور العائلات إلى الموقع، في السّماح لها بمشاهدة عملية الاستعادة بأمّ العين، من أجل مساعدتهم على التّقبّل في حالِ نكران النبأ. ومع ذلك، يجب ألاّ تُجبر العائلات على تقبّل حقيقةٍ قد لا تكون مستعدّة للاعتراف بها، بل يجب أن تتقبّلها على مهلِها.

تلقّي نبأ وفاة أحد أفراد العائلة

عند الفراغِ مِن تحديد الهوية، يجب إشعارُ العائلة بأنَّ هوية المفقود قد حُدِّدَت. وتُعدّ هذه اللّحظة لحظةً حسّاسة جدًّا بالنّسبة إلى العائلات. وَيمكنُ نقل النبأ جماعيًّا إلى العائلات المنتمية إلى مجموعاتِ المرافقةِ والدّعم، وفرديًّا، إلى الأقارِب الّذين لم يُشاركوا في المجموعات.

ويسمح تلقّي النبأ ضمن مجموعات بالحصول على الدّعم الاجتماعيّ ولمس التفهُّم لصعوبة تلقي الأنباء الأليمة. لكنّ ذلك قد لا يكون ممكنًا في المجموعات الآتية من مدنٍ كبيرة أو المجموعات التي أخفِيَ فيها المفقودونَ في ظروفٍ مختلفة أي أنّ هويّاتهم قد لا تُحدّد في المواقع نفسها.

إبلاغ العائلات بالنبأ

إبلاغ العائلات بأخبار مصير أحبائهم المفقودين يتطلب حساسية، واستعدادًا، ونهجًا يحترم مشاعرهم لمساعدتهم على استيعاب المعلومات والتعامل مع تأثيرها.

- في بداية الاجتماع أو الزيارة، أعطِ مؤشرًا حول طبيعة النبأ، مثل: "نحن هنا اليوم لإفادتكم بمُستجداتٍ، قد تكون ثقيلة أو مؤلمة، حول العمليّة."
- تأكّد من حضور أفراد العائلة الّذين قد لا ينفعلون بشدّة مع النّبأ، مثل الأحفاد أو غيرهم ممّن يمكنهم مواساة الأشخاص الأقرب إلى المفقود.
- حدّد هوية المفقود، فالعائلات تحتاج إلى كلّ الأدلّة اللاّزمة لكي تتقبّل النبأ.
- قدّم جميع المعلومات حول تحديد هوية المفقود وظروف وفاته، فقد يخفّف ذلك مِن اضطرابِ العائلة، بعدَ أن تصبح مستعدّة للاستماع.

- يعود إليكَ خيار إبلاغ أفراد العائلة الأكثر تقبلاً لنبأ الوفاة في وقتٍ مُسبق حتى يتمكنوا من تقديم الدّعم لباقي أفراد العائلة لاحقًا.
- تحسّب لردود فعل حادّة مثل النكران والغضب على الرّغم من إدراكِ العائلة لاحتمالِ وفاةِ المفقود.
- توقّع غياب أيّ ردّ فعلٍ أو عدم ذرفِ دموعِ الفرح.
- افسح مجالاً للصمت.
- أقرّ بالمشاعر المضطربة التي قد تنتج عن التّوصّلِ إلى إجابةٍ عن مصير المفقود.
- امتنع عن الطّمأنة عبرَ تقديم التسويات كقولكَ مثلاً: "على الأقلّ أنتم تعرفون الحقيقة الآن" أو "إنّه في مكان أفضل"؛ فالمعنى الذي ستعطيه العائلة لِلنبأ سينبع من قصتهم واحتياجاتهم ومعتقداتهم.
- أقرّ بثقل النبأ عليك، فقد يكون حمله عبئًا ثقيلاً.
- احرص على احترام العادات الاجتماعيّة والممارسات الدينية.
- يجب أن يكون المتحدّث شخصًا تثق به العائلات. ويمكن أن يكون هذا الشخص وجهًا ألفتهُ العائلات طوال العملية.
- امنح العائلات وقتًا لطرح الأسئلة حول الخطوات اللاحقة.
- امنح العائلات وقتًا قبل تسلّمها الرفات، ويفضّل أن يكونَ ذلكَ بعدَ مرور بعض الوقت للسماح للعائلات باستيعابِ النبأ.
- اقترح دومًا جهة اتصال للاستفسارات اللاحقة.
- ضمنَ المجموعات:
  - تأكّد من حضور أخصائي الصحّة النفسية وأخصائي في الطبّ الشرعي للإجابة على الأسئلة.
  - تأكّد من حضور شخصيّة دينيّة أو زعيمٍ طائفي في المجتمعات الدينيّة.
  - تأكّد من حضور مرافقي المجموعة المعنية.
  - درّب المرافقين والأشخاص الرئيسين على مهارات التّواصل الدّاعمة مثل التفهّم، وإبداء القلق، وإظهار التعاطف، والسّماح بالصمت واستخدامه، والتّواصل غير العنيف، وتهدِئَة التّصعيد.
  - تأكّد من أنَّ جميع العائلات قادرة على فهمِ نبأ الوفاة.
  - لا تفرِض النبأ على من يرفض سماعه.

رفض تقبّل نبأ وفاة المفقود

ليسَ رفض العائلات لنبأ وفاةِ المفقود أمرًا غير مألوف، وتتعدّدُ الأسباب الّتي تجعلُ مِن الصّعبِ على العائلات تقبّل النبأ أو الّتي تحملها إلى رفضِه. وفي هذه الحالة، يمكن للشخص المكلّف بنقل النبأ:

- أن يعيد شرح العملية للعائلة وأن يُظهر تفهمّه لانعدام ثقتها
- أن يعرض على العائلات الاتّصال بعائلات أخرى قد مرّت بالموقف العصيب عينه

وعلى الرّغم من وجوب احترام خيار العائلة برفض النّبأ، يجب ألّا يكمنَ الهدف من الدعم المستقبلي في إقناع العائلة بتقبّله، بل في مساندتها على استيعابِه وعلى تخليد الذكرى في حال لم تقم بِذلك بعد. وقد يصعب على العائلات تقبّل نبأ وفاةِ أحد أفرادها إن لم تكن مستعدة لذلك؛ فعلى سبيل المثال، قد تعتقد العائلات لفترة

طويلة أنّ المفقودَ بطلٌ أو شهيد في سبيل الوطن، لكنّ الظروفَ المُتّضحَة تعارض اعتقادهم هذا.

ويمكن أن تقترنَ هذه المقاومة النّفسية بطريقة تفكير تدعمها. فَمنَ النّاحية العملية، قد تتوفّر لدى العائلات معلومات عن الظروف أو الأحداث تعارض المعلومات المقدّمة لها الآن. هذا وقد تُسلّم العائلات حفنةً قليلةً من الرفات وحسب. وفي حالٍ كانت العائلة صريحةً في رفضها نبأ الوفاة، فإنَّ محاولة إقناعها به تعتبرُ مُقاومةً لخيارها ولقدرتها على تقبّل الوضع، وهو ما يُقلّلُ من قدرتها على الصمود.

استلام رفات شخصٍ عزيز

بغضّ النّظر عن مدى الاستعداد السّابقِ لِهذه اللحظة، قد تكون هذه التجربة مؤلمة للغاية بالنّسبة إلى العائلات. وإذا عُثِر على مُقتنياتٍ للمفقود، فيجبُ تسليمها قبل هذه اللحظة، ويفضّل أن يتم تسليمها عندما يتمّ الإعلان عن نبأ الوفاة، وذلكَ لتخفيفِ وطأةِ اليوم الّذي أصبحَ فيه النبأ 'حقيقة'، شأنه في ذلكَ شأنُ يوم دفن المفقود أو إقامة مراسم التّأبين.

وعلى الرّغم من عرضِ صور الرفات خلال جلسات الإعلامِ بالمعلومات، فإنَّ لحظة استلامه صعبةٌ للغاية، لا سيّما إذا كان الرفات قليلاً، أو إذا ظهرت علامات قد تُبيّن معاناة المفقود قبل وفاته. وقد تخالج العائلات مشاعر مثل الشّعور بالذنب بسبب الارتياح بعد معرفة الحقيقة.

وكما ذُكر في الخطوات السابقة، يُحبّذُ أن تلتئمَ العائلات ضمنَ مجموعاتها من أجلِ هذا الحدث، وذلكَ للأسباب المذكورة أعلاه. وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، يجب أن يكون المرافقون حاضرين حتّى في بيئة أسريّة مغلقة إلى جانب أفراد العائلة أو الأصدقاء الّذين قد يشكّلونَ مصدر دعم لأفراد العائلة الأكثر تأثّرًا. قد تحتاج العائلات إلى الدعم لإعادة دفن الرفات دفنًا كريمًا. وقد يعني ذلك إقامة مراسم جماعيّة تُشاركُ فيها مجموعة العائلات أو المرافقون الحاضرون لدعم العائلات في يوم إعادة الدفن.

> "عندما نزور المقابر في بلدتي، لا أستطيع وصف مدى صعوبة الأمر بالنسبة إليّ؛ فأرى ذاك الرجل يصلي لأرواح أمواته والآخر يدفنهم... هذه هي الحياة، والموت جزء منها. لو وقعَ الإخفاء اليومَ، لربما عادَا. فالآن ثمّة مُناصرة، لكن، في ذلك الوقت كانَ النّاس يعيشونَ حياةً فوضويّة، ولم يبدِ أحد أي اهتمام، ولم يكن النّاس على هذا القدرِ من الوعي. لقد كانوا بسطاء، بسطاء للغاية."
>
> إنعام، شقيقة وزوجة لمفقودين، 2021

مرافقة العائلات للتأقلم مع غياب المفقود

في لبنان، ما زالت عائلات المفقودين تنتظر عودتهم منذ ثلاثة أو أربعة عقود. فقد أُجبرت العائلات على العودة إلى حياةٍ شبه طبيعية على الرّغم من الإخفاء المستمرّ. ومع ذلك، فإنّ تقبّل "معرفة الحقيقة" واعتيادها يُرخي بظلاله على حياة أفراد العائلة المقربين. وينطبق ذلك بشكل خاص على أولئك الذين ضحّوا بحياتهم أو أعطوها معنى من خلال البحث عن المفقودين. فالآن، عليهم مواجهة تغيّر كبير في هويتهم.

وقد تتبعُ ذلك أعراضُ الاغتمامِ أو الاكتئاب السريري طوال فترة الحزن. وينشأ 'فراغٌ' من المعرفة، وذلكَ من خلال فقدانِ قضية ما وفقدان الانشغال بالمفقود. لذا، يجبُ مرافقة العائلات، لا سيّما طوال هذه المرحلة الّتي قد تعود بآثارٍ مُضرَّة على صحّتهم الجسديّة والنّفسيّة على حدّ سواء. يمكن أن تقترحَ الجلسات التي تعقدُها المجموعات المرافقة القيامَ بأنشطةٍ مجدية للعائلات، وذلكَ بحسب التركيبة السّكانية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، مثل صناعة الحرف اليدوية أو الأنشطة التّذكارية أو أنشطة التوعية.

استلام رفات شخصٍ عزيز

بغضّ النّظر عن مدى الاستعداد السّابقِ لِهذه اللحظة، قد تكون هذه التجربة مؤلمة للغاية بالنّسبة إلى الأسر. وإذا عُثِر على مُقتنياتٍ للمفقود، فيجبُ تسليمها قبل هذه اللحظة، ويفضّل أن يتم تسليمها عندما يتمّ الإعلان عن نبأ الوفاة، وذلكَ لتخفيفِ وطأةِ اليوم الّذي أصبحَ فيه النبأ "حقيقة"، شأنه في ذلكَ شأنُ يوم دفن المفقود أو إقامة مراسم التّأبين.

وعلى الرّغم من عرضِ صور الرفات خلال جلسات الإعلامِ بالمعلومات، فإنَّ لحظة استلامها صعبةٌ للغاية، لا سيّما إذا كانَت الرّفات قليلة، أو إذا ظهرت علامات قد تُبيّن معاناة المفقود قبل وفاته.

وقد تخالج الأسر مشاعر مثل الشّعور بالذنب بسبب الارتياح عند معرفة الحقيقة.

وكما ذُكر في الخطوات السابقة، يُحبّذُ أن تلتئمَ الأسر ضمنَ مجموعاتها من أجلِ هذا الحدث، وذلكَ للأسباب المذكورة أعلاه. وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، يجب أن يكون المرافقون حاضرين حتّى في بيئة أسريّة مغلقة إلى جانب أفراد الأسرة أو الأصدقاء الّذين قد يشكّلونَ مصدر دعم للأسرة.

قد تحتاج الأسر في بعض الحالات إلى الدعم لإعادة دفن الرفات دفنًا كريمًا. وقد يعني ذلك إقامة مراسم جماعيّة تُشاركُ فيها مجموعة الأسر أو المرافقون الحاضرون لدعم الأسرِ في يوم إعادة الدفن.

> "عندما نزور المقابر في بلدتي، لا أستطيع وصف مدى صعوبة الأمر بالنسبة إليّ؛ فأرى ذاك الرجل يصلي لأرواح أمواته والآخر يدفنهم... هذه هي الحياة، والموت جزء منها. لو وقعَ الإخفاء اليومَ، لربما عادَا. فالآن ثمّة مُناصرة، لكن، في ذلك الوقت كانَ النّاس يعيشونَ حياةً فوضويّة، ولم يبدِ أحد أي اهتمام، ولم يكن النّاس على هذا القدرِ من الوعي. لقد كانوا بسطاء، بسطاء للغاية." [49]
>
> إنعام، شقيقة وزوجة لمفقودين، 2021

مرافقة الأسر للتأقلم مع غياب المفقود

في لبنان، ما زالت أسر المفقودين تنتظر عودتهم منذ ثلاثة أو أربعة عقود. فقد أُجبرت الأسر على العودة إلى حياةٍ شبه طبيعية على الرّغم من الإخفاء المستمرّ. ومع ذلك، فإنّ تقبّل "معرفة الحقيقة" واعتيادها يُرخي بظلاله على حيوات أفراد الأسرة المقربين.

وينطبق ذلك بشكل خاص على أولئك الذين ضحّوا بحيواتهم أو أعطوها معنى من خلال البحث عن المفقودين. فالآن، عليهم مواجهة تغيّر كبير في هويتهم.

وقد تتبعُ ذلك أعراضُ الاغتمامِ أو الاكتئاب السريري طوال فترة الحزن.

وينشأ "فراغٌ" من المعرفة، وذلكَ من خلال فقدانِ قضية ما، أي فقدان الانشغال بالمفقود.

لذا، يجبُ مرافقة الأسر، لا سيّما طوال هذه المرحلة الّتي قد تعود بآثارٍ مُضرَّة على صحّتهم الجسديّة والنّفسيّة على حدّ سواء.

يمكن أن تقترحَ الجلسات التي تعقدُها المجموعات المرافقة القيامَ بأنشطةٍ مجدية للأسر، وذلكَ بحسب التركيبة السّكانية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، مثل صناعة الحرف اليدوية أو الأنشطة التّذكارية أو أنشطة التوعية وما إلى ذلك.

النّصب التّذكارية أو الطقوس الاجتماعيّة والدّينيّة الرمزية

هي للعائلات التي لم تعثر على مفقودِها. إنّ طولَ الوقت الّذي مضى، والتغيّر الّذي لحقَ بمواقع المعارك والمجازر، وإعادة بناء بيروت بعدَ الحرب، وإعمار المناطق الريفية، عواملُ تقلّلُ احتمال العثور على المفقودين أو

تحديد هوياتهم. ومن الضروري، منذ انطلاقِ العملية، توضيح أنّ قلّةً من العائلات فحسب قد تحصل على إجابات على الرّغم من قُصارَى الجهود التي يبذلها كلٌّ من الهيئة والأخصائيين. وعندَ مراجعةِ سياقاتٍ عدّة بُذلت فيها جهودٌ في سبيل كشف حقيقة حالات الإخفاء القسري، تبيّنَ أنَّ النتائج تختلف بشكلٍ كبير لجهةِ أعداد المفقودين والرفات الذي يتم استعادته وتحديد هوية صاحبه.

فقد تكون الأعمال الرّمزية والنُّصب التذكارية مصدرَ عزاءٍ للعائلات التي لن تتلقى أي إجابةٍ. وصحيحٌ أنّ المفقودَ قد تُحدّدُ هوّيته على نحوٍ فردي أو مع العائلة، إذا ما كانت لا تزال تذكره وقد استوعبت التّحول في إدراك هويته، لكنّه، في المجتمع المحيط، لا هو ميت ولا حيّ، ولا شهيد ولا سجين... ومن شأنِ هذا الغموض والإخفاء القسري الكامن في أذهان أفراد المجتمع أن يُثقلَ كاهل العائلات أكثرَ فأكثر. وفي هذا الصدد، ساهمت دراسةٌ أعدّها سيمون روبينز (2014) وحملت عنوان بناء المعنى من الإخفاء: تخليد ذكرى المفقودين محليًّا في نيبال في الإجابة على تساؤلات العائلات وتلبيةِ احتياجاتها بعدَ توصّلها إلى طريقٍ مسدود.

> "إنّ تخليد الذكرى عملية اجتماعية يمكنها إيجادُ المعاني وإعادة تكوين الهويات، وهي، عندَ تطبيقها محليًا، إنّما يمكنها إعادة تشكيل المساحة الاجتماعية التي يعيش فيها النّاجون بشكل جماعي."

> "فبدلاً من التعامل مع الذكرى بعد النزاعات من خلال الصّدمة المجازيّة الّتي تنتجُ الحقيقة في شأنها عن عملية مؤسستيّة، مثل لجنةِ حقيقة ترمي إلى تحقيق المصالحة بين أطراف النزاع، يسعَى الضحايا إلى التصالح مع الحادثة ومع مجتمعهم، وهو ما يولّدُ معاني إيجابية تمنحهم الأمل في المستقبل."

وتسعى الأنشطة الأكثر مواساةً للعائلات إلى تحديد هوية المفقود، لا بشكلٍ فردي فحسب، بل داخل المجتمع أيضًا. وتمامًا مثل برامج تخليد الذكرى، تحتاج العائلات في هذه المرحلة إلى إحياء ذكرى المفقود في مجتمعها لكي تتمكّن ولو لفترة وجيزة من إزالة العبء الكامن في حمل ذكرى المفقود.

> "تريد [عائلات المفقودين] أيضًا تخليد الذكرى من أجل إعادة تشكيل المساحات الاجتماعية التي تعيشُ فيها حيثُ تحدث الآثار الأكثر خطورة للإخفاء. ويؤدي ذلك إلى مفهوم علاجي لتخليد الذكرى، وهو مفهوم لا يخدم مصالح السلطة أو أحد أطراف النّزاع، لكنّه يعزّز عافية الضحايا.".

يمكن أن يكون هذا النّصب التذكاري أو منتج تخليد الذكرى بمثابة حجرِ الأساس في طقوسٍ تُقيمُها العائلات، تمسّكًا بمفقوديها، ولعلَّ خير مثالٍ على ذلك هو إعلان اليوم العالمي للمفقودين (الواقع في 30 آب/أغسطس). ففي هذا اليوم، تشعرُ العائلات بتعاطفِ الآخرين معها، وتُكسِبُ المفقودَ معنًى أو هوية تختار تجسيدها في عملِها التّذكاريّ.

> "إنّ أغلبية أعمال تخليد الذكرى في عمليات العدالة الانتقالية تتجاهل علاقات القوّة التي تُسَيِّر الذاكرة الجماعية، بمعنى مَن يتذكّر الواقعة وكيف يتذكّرها. وقد سعى التّدخّل الوارد هنا (في الدّراسة) إلى تمكين تمثيل الضحايا بشكل واضح، من خلال التعامل مع ذاتيّهم وهويتهم على حدّ سواء.
>
> ومن شأنِ تخليد الذكرى أن يُعزّزَ قدرة الفردِ على الصمود من النّاحيتَيْن النّفسيّة والعاطفية وأن يُحسّنَ عافيتَه: ويتم ذلك من خلال مراسم إحياء الذكرى وأعمال التكريم التي تُسبغ معنى إيجابيًا على تجربة الأسر، وتشدّد على قيمة المفقودين والأسر في ضوء الانتهاكات التي تخفّف من قيمتهم، وتعزّز هوية الأسر على أنّها أسرُ مفقودين. "

للعائلات التي لا ترغب في استعادة الرفات

تختار بعض العائلات عدم استعادة رفات عزيزها. فيجبُ احترام خيار العائلة، لأنّها لا تزالُ تحتاج إلى الشّعور بالسيطرة على ما تفعله، حتّى تقدرَ على أن تُعبّرَ عن ذكرى المفقود وتُحييها إحياءً رمزيًّا.

ومِن بين هذه العائلات، عائلاتٌ كانَ مفقودها مسنًّا لحظةَ إخفائِه أو ثبُتَت وفاته ولم يُستعاد رفاتِه، أو قُتل على الفورِ في اشتباكات مسلحة. وفي بعض القرى الريفية، تعرف العائلات مكان دفن كلٍّ من المفقودين بشكل فردي أو جماعي. وبالنسبة إلى أفرادِ هذه العائلات، قد تُجدِي مقاربة تخليد الذكرى المفضّلة أعلاه نفعهَا إذا اختارُوا ذلك. لكن يجب أن يعود للعائلات خيار إعادة مناقشة هذا الموضوع لأنّها قد تغيّر رأيها بعدَ التعمّق في تفاصيلِ العمليّة وبعدَ أن تُحدّدَ هويات مفقودين آخرين.

> "عند انتشال الجثث، قد تحوي المقبرة الجماعية نفسها رفات مفقودين قد لا تريد أسرهم انتشال جثثهم، لكن، حينَ تُحدّدُ هويات المفقودين الآخرين، تبدّل الأسر رأيها وتقول "حسنًا، أريد تحديد هوية قريبي المفقود أيضًا."
>
> كلوديا ريفيرا، مديرة علوم الأدلة الجنائية، 2021

الفصل الخامس: التعامل مع ضغوط العمل في قضايا المفقودين

إنّ الاهتمام بعافية الأشخاص العاملينَ في بيئات مرهقة ومليئة بالصّدمات هو أيضًا جزءٌ من المقاربة الواعية بالصدمات. ومن شأنِ دعمِ عافية مقدّمي الخدمات وقدرتهم على الصمود أن يضمنَ بقاءَهم في صحّة جيدة ويصون قدرتهم على أداء عملهم بتعاطفٍ وبطريقة واعية بالصدمات. تقع هذه المسؤولية على الأفراد الذين يعملون عن قرب مع العائلات وعلى المؤسسات التي قامت بتكليفهم. إنَّ قدرة مقدّمي الرّعاية على أداء العمل بتعاطفٍ ترتبطُ ارتباطًا وثيقًا بقدرتهم على التعاطف مع أنفسهم أوّلاً.

حالات الإجهاد التراكمي

قد يكون العمل على ملف المفقودين في لبنان مرهقًا نظرًا لمحدودية العائد على الاستثمار فيه. وغالبًا ما يكون هذا العملُ مُضنِيًا لضآلةِ التّقدّم المُحرز في مُقابلِ كثرة الجهود المبذولة والتعاطف الممنوح عند دعم العائلات. ويتطلّب هذا الإجهاد التراكمي جهدًا واعيًا ومتعمّدًا للتعامل معه لكي لا يصل العاملَ إلى مرحلة الإجهاد النّفسي (نفاذ الوسع) أو إرهاق التعاطف. ويُعرَّف الإجهاد في التصنيف الدولي للأمراض (ICD-11) على النّحو التالي:

إنّ نفاد الوسع هو متلازمة يستند مفهومها إلى ما ينتج عن الإجهاد المزمن في مكان العمل مع الفشل في إدارته. ويتميز نفاد الطاقة بثلاثة أبعاد هي: مشاعر نفاد الطاقة أو نضوبها؛ زيادة المسافة الذهنية التي تفصل بين الفرد وبين عمله، أو مشاعر سلبية أو ساخرة تتعلق بعمل الشخص؛ وقلّة الإنجاز المهني. ويشير نفاد الطاقة على وجه التحديد إلى ظواهر تتجلى في السياق المهني ولا ينبغي تطبيقه لوصف المعاناة في مجالات أخرى من الحياة (التصنيف الدولي للأمراض لإحصاءات الوفيات والمراضة، المراجعة الحادية عشرة [ICD-11]).

من ناحية أخرى، "إنّ إرهاق التعاطف هو من الأعراض المرتبطة بنفاذ الوسع والإجهاد التي يعانيها مقدمو الرعاية وغيرهم من المهنيين المساعدين كردّ فعل للعمل مع الأشخاص المصابين بصدمات نفسية على مدى فترات طويلة من الزمن" (جمعية علم النفس الأمريكية.، 2018). تقدم الجمعية الأمريكية لعلم النفس رؤىً حول أعراض الإجهاد، التي أصبحت الآن مفهومة على أنها تمتد عبر عدة أبعاد. والفئات الخمس للأعراض هي كما يلي:

1. **الأعراض الإدراكية:**
    - القلق المستمر أو الأفكار المُقلِقة.
    - صعوبة التّركيز أو اتّخاذ القرارات.
    - صعوبة التذكّر أو الشعور بالعجز.
2. **الأعراض العاطفية:**
    - الشعور بالانزعاج أو الحزن أو الإحباط.
    - زيادة الحساسية العاطفية أو صعوبة التحكم بالمزاج.
    - أعراض القلق أو الاكتئاب التي تؤثر على أداء الأنشطة اليومية.

1. **الأعراض السلوكية:**
   - سلوكيات التهرب أو المماطلة.
   - اضطراب النظام اليومي، مثل التغيّرات في أنماط الأكل أو النوم.
   - الأعراض التي تظهر على الجسد، مثل التململ أو الشعور بعدم الراحة أو العادات القهرية.
2. **الأعراض الجسدية:**
   - تشنّج العضلات أو الصّداع أو صرير الأسنان.
   - اضطرابات الجهاز الهضمي، مثل الغثيان أو اضطراب المعدة.
   - التعب الشديد أو تسارع ضربات القلب، أو الإصابة المتكررة بالأمراض نتيجةً لضعف جهاز المناعة.
3. **الأعراض الاجتماعية:**
   - الابتعاد عن التفاعلات الاجتماعية أو مواجهة صعوبة في الحفاظ على العلاقات.
   - الاعتماد المفرط على الآخرين للحصول على الطمأنينة أو التهرب من المسؤوليات.
   - تغيّرات في طبيعة التفاعل الاجتماعي مثل زيادة النزاعات أو الانعزال.

وتشير آخر الأبحاث إلى أن استجابات الإجهاد يمكن أن تختلف بشكل كبير بين الأفراد بناءً على عوامل بيولوجية ونفسية وسياقية. يمكن أن يؤدي الضغط النفسي الناتج عن العمل على حالات الصدمات إلى التعرّض لصدمة ثانوية. فمن الشائع أن يواجه مَن يعملُ عن كثب مع الناجين من الصدمات تحديات عاطفية ونفسية تؤثر على نظرتهِ إلى العالم والآخرين.

وتُعرّف الجمعية الأمريكية (1995) لعلم النّفس التّعرّض غير المباشر للصدمة بأنّه "التّأثير الذي يحدثُ في المعالجين نتيجةَ تعاملهم بشكلٍ عاطفيّ متكرّرٍ مع النّاجين من الصّدمات النفسيّة." ويمسُّ هذا التأثير مقدّمي الرعاية مثل الأخصائيين الاجتماعيين والممرضين والأطباء أو غيرهم من الأشخاص الذين يعملون عن كثب مع الأشخاص المصابين بصدمات نفسية. فَعلى سبيل المثال، إنَّ المرافقين الذين يتعاطفونَ مع العائلات قد يتأثّرونَ بقصصها، مما ينعكس على نظرتهم إلى العالم، وعلاقاتهم مع الآخرين، وكذلك على تصورهم لأنفسهم. إنّ التعرف على هذه ظاهرة ومعالجتها يُعدُّ أمرًا بالغ الأهمية للحفاظ على سلامة من يعملون في مجال الرعاية الواعية بالصدمات.

استراتيجيات العناية بالذات

تنطوي العناية بالذات على ممارسة مستمرّة للتّحكم في مستوياتِ الإجهاد وتعزيزِ العافيَة. وينبغي ألاّ تقتصر ممارسة العناية بالذّات على التعاملِ مع مستويات الإجهاد المرتفعة، بل أن تكون جهدًا مستمرًا للحفاظ على التوازن والصحة.

إذا شعرت أنّ معاناتكَ أصبحَت مزمنة، وأنّكَ تناضلُ يوميًّا من أجلِ إنجاز مهامك المعتادة في العمل وفي حياتك الشّخصية، فقد تنفعكَ النصائح التالية. وقد لا تكون هذه النصائح كافية بحدّ ذاتها، ففي هذه الحالة، يرجى طلب المساعدة من أحد أخصائي الصحّة النفسيّة مثل طبيب نفسي/معالج نفسي.

رعاية الموظفين العاملين على ملفّ المفقودين

أولوية الدعم التنظيمي للموظفين

تُولِي الأطرافُ المعنيّة بالعمل على ملف المفقودِينَ الأولوية التنظيمية لِرعاية الموظفين العاملينَ في الخطوط الأمامية الذين يتواصلون بصورة دائمةٍ مع العائلات في الميدَان، أو الذين يتعاملون مع البيانات والسّرديات المرتبطة بالقضية. وتُعدّ المبادئ الواردة أدناه أساسيّة بالنّسبة إلى الأطراف المعنيّة الّتي تسعى إلى الحفاظ على مقاربةٍ واعية بالصدمات من خلال رعايتها موظفيها أولاً.

المبادئ الأساسية لرعاية الموظفين:

المبدأ 1: الالتزام المنهجي برعاية الموظفين

- تحديد رعاية الموظفين على أنّها مبدأ توجيهي من خلال اعتبارها أولوية وعنصرًا أساسيًّا من عناصر العمليات.
- وضع السياسات والإجراءات والميزانيات ذات الصّلة.
- بناء قدرة المنظمات على دعم الموظفين عن طريق تحديث السياسات والمشاركة في المؤتمرات وورشات العمل ذات الصلة وما إلى ذلك.

المبدأ 2: التوجيه والإرشاد

- إعلام الموظفين بالضغوطات المحتملة التي قد تواجههم في الميدان وتزويدهم بموارد وخدمات تعزّز من قدرتهم على الصمود عند الانضمام إلى المنظّمة أو عند تولّيهم مهمّات جديدة.
- إبلاغ الموظفين الجدد بسياسات المنظّمة في ما يتعلّق برعاية الموظفين وتعريفهم بالخدمات المتاحة لهم.
- تحديد مواد التوجيه والالتحاق في شأن العناية بالذات والقدرة على الصمود والسيطرة على الإجهاد.

المبدأ 3: الدعم المتواصل

- ضمان عقد جلسات دعم جماعية دورية للموظفين في سياقاتِ عملٍ مماثلة، بشكلٍ شهريّ أو مرّة كلَّ ثلاثة أشهر أو مرّة كلّ ستّة أشهر، حسبِ مُقتضَى حاجة الموظفين.
- ضمان عقد جلسات تشاورية فردية وتأمين مواد أخرى تفيد دعم الموظّفين بإمكانهم الحصول عليها بسرية.
- توفير الراحة والأنشطة التي تُعزّز استرخاء الموظفين.
- إنشاء قنوات اتّصال بشأن موضوع رعاية الموظفين.
- تزويد المدراء بدعم إضافي لضمان رفاهيتهم وقدرتهم على دعم فريقهم.
- ضمان وضع سياسات رصد رفاهية الموظفين خصوصًا بعد الحوادث الخطيرة وفترات العمل المرهقة.
- إنشاء عنصر لدعم الأقران، عند الإمكان، وتحديد إطار زمني ومكاني واضح يمكّن الموظفين من مشاركة آرائهم علنًا مع الزملاء ضمن حدودٍ آمنة يضعها مدرّب مؤهّل يمكن أن يكون زميلاً.
- تحديد الدور الوظيفي الذي ينطوي على مخاطرَ أكبر في التّعرّض لمثيراتٍ صادِمة أو على تحمّلِ عبءٍ أكبرَ في العمل وإعطاء الأولوية لحصول موظّفيه على خدمات الدّعم.
- التأكّد من مشاركة الجميع في أنشطة رعاية الموظفين بشكل عام، فقد يمسُّ الإجهاد أي شخصٍ حتّى وإن لم يكن يُبدِي ذلك.

من خلال تبنّي هذه المبادئ، يمكن للمنظمات أن تهيّئ بيئة داعمة من شأنها أن تُخفّف من الضغط النفسي

وتعزّز قدرة الموظفين على العمل بتعاطف وفعالية ضمن السياق المليء بالتحديات لقضايا المفقودين.

نصائح العناية بالذات

- راقِب العلامات التي تسبّب لكَ الإجهاد، وراقِب الطّرق التي يعبّر بها كلٌّ من نفسيتكَ وعقلك وجسدكَ عن الإجهاد، سواء كان ذلك توترًا جسديًا، تغييرات عاطفية، أو تحولات سلوكية.
- ابحث عن أنشطة مهدّئة تسكّن عقلكَ وتخفّف من معدل نبضات القلب مثل التأمل، التنفس العميق، أو التمارين البدنية الخفيفة.
- حافِظ على صحتكَ البدنية، وعلى نظام غذائي متوازن، وشارك في نشاط بدني منتظم، واحصل على قسط كافٍ من النوم لدعم مرونة جسمك في مواجهة التوتر.
- أقِم توازنًا سليمًا بين العمل والحياة، حدد حدودًا لضمان وجود وقت للاهتمامات الشخصية والراحة خارج نطاق العمل.
- كُن واقعيًّا في توقعاتكَ الخاصّة الّتي تُعلّقُها على نفسك، تجنّب تحميل نفسك أهدافًا غير قابلة للتحقيق أو النقد الذاتي المفرط.
- اعترف بحدودكَ الخاصّة، فلا يمكنكَ إنقاذ الجميع العالم أو مساعدة العائلات بطريقةٍ تتجاوز قدراتكَ.
- خُذ قسطًا من الرّاحة، خصص أوقاتًا منتظمة للراحة لتجديد طاقتك وتجنب الإرهاق.
- اطلب الدّعم الاجتماعي من زملاءَ وأصدقاء وأقاربَ تثقُ بهم لمشاركة تجاربك والحصول على الدعم.
- طوّر مهارات التّواصل، عزّز قدرتك على تقديم استجابات داعمة من خلال التدريب المهني الذي يساعدك على تجنب الإرهاق العاطفي.

تُحسّن هذه الاستراتيجيات من قدرتك على التحمل، كما تضمن استعدادك لدعم الآخرين على نحوٍ فعّال.

ملاحظات ختامية

أُعِدّ هذا الدليل لإرشاد المهنيين العاملين مع عائلات المفقودين اللبنانية، إذ يوفّر استراتيجيات عملية، ومبادئ واعية بالصدمات، وإطار عمل للمرافقة الفعّالة. وإنّ دوركم محوري في تقديم الدعم، وتعزيز القدرة على الصمود، ومساعدة العائلات في تجاوز مشقات رحلتها المعقّدة والمؤلمة في السياق اللبناني.

مع ختام هذا الدليل، من المهم الإقرار بأن المقاربة المراعية للصدمات هي عملية تعلّم مستمرة. والاطّلاع الدائم على أحدث التطورات في نظريات الصدمات وممارساتها ضروريٌ لضمان تقديم أفضل رعاية ممكنة لهذه العائلات. وتعتمد هذه المقاربة بشكل كبير على التعاطف والإنسانية، إذ يشكّل الالتزام بفهم احتياجات العائلات ودعمها الدافع الرئيسي لكل الجهود المبذولة. فالتعاطف، والشفافية، والتعاون هي ركائز أساسية لبناء جسور الثقة مع العائلات اللبنانية، واحترام خياراتها، والإقرار بتجاربها.

وفي الوقت نفسه، من الضروري أن يولي المهنيون اهتمامًا لسلامتهم النفسية والجسدية. فإنّ هذا العمل الذي يحمل تحديات عاطفية كبيرة يتطلب يقظةً، واهتمامًا بالنفس، وحدودًا مهنية، واضحة. ومن خلال الحفاظ على التوازن، يمكن تقديم الدعم على نحوٍ أفضل لكل من يحتاجه.

كل خطوة تخطونها في هذه الرحلة، مهما بدت صغيرة، تحمل أثراً لا يُستهان بها في الطريق إلى العدالة والتشافي وبناء السلام، ليس فقط على عائلات المفقودين، بل على المجتمع اللبناني بأسره. إن تفانيكم ورعايتكم يُحدثان فرقًا حقيقيًا في حياة من يحتاجون لدعمكم، وفي التقدّم الجماعي نحو كشف الحقيقة.

ليكن هذا الدليل بمثابة مصدر مرجعي وتذكير بالأثر العميق لعملكم في لبنان. فإنّ باستمرار الالتزام والتعاطف والرعاية، يمكننا المساهمة في تحويل الألم إلى قوة، وبناء مسارات نحو المصالحة، والأمل، والتشافي.

قائمة المراجع والمصادر

American Psychiatric Association. (2013). Diagnostic and statistical manual of mental disorders (5th ed.). https://doi.org/10.1176/appi.books.9780890425596

American Psychological Association. (2018). Compassion fatigue. APA Dictionary of Psychology. Retrieved from https://dictionary.apa.org/compassion-fatigue

Bloom, S. L. (1997). Creating sanctuary: Toward the evolution of sane societies. New York: Routledge.

Bloom, S. L. (2010). Organizational stress as a barrier to trauma-informed service delivery. In M. Becker & B. A. Levin (Eds.), Public health perspective of women' s mental health (pp. 295–311). New York, NY: Springer.

Boss, P. (1972). Father's absence in intact families. In Presentation at the annual meeting of the National Council on Family Relations, Research and Theory Section, Toronto, Canada.

Boss, P. (1975). Psychological father presence in the missing-in-action (MIA) family: Its effects on family functioning. In Proceedings of the third annual joint medical meeting concerning POW/MIA matters (pp. 61–65). San Diego, CA: Center for Prisoner of War Studies, Naval Health Research Center.

Boss, P. (1993). The construction of chronicity: Coping with ambiguous loss. System Families, 6, 161–170.

Boss, P. (1999). Ambiguous loss: Learning to live with unresolved grief. Cambridge: Harvard University Press.

Boss, P. (2009). The trauma and complicated grief of ambiguous loss. Pastoral Psychology, 59, 137-145. https://doi.org/10.1007/s11089-009-0264-0

Boss, P., & Greenberg, J. (1984). Family boundary ambiguity: A new variable in family stress theory. Family Process, 23(4), 535–546. https://doi.org/10.1111/j.1545-5300.1984.00535.x

Courtois, C.A. & Ford J.D. (Eds.) (2009). Treating complex traumatic stress disorders: An evidence-based guide. New York: The Guilford Press.

Harris, M. & Fallot, R. D. (Eds.) (2001). Using trauma theory to design service systems. San Francisco: Jossey-Bass.

Haugbolle, S. (2012). War and memory in Lebanon. Cambridge University Press. Retrieved from http://ndl.ethernet.edu.et/bitstream/123456789/53363/1/21.pdf.pdf

Hopper, E. K., Bassuk, E. L., & Olivet, J. (2010). Shelter from the storm: Trauma-informed care in homelessness services settings. The Open Health Services and Policy Journal, 3(2), 80-100.

Horowitz, M. J. (Ed.). (1989). Treatments of psychiatric disorders: A task force report of the American Psychiatric Association (pp. 2065–2082). American Psychiatric Association.

International Center for Transitional Justice (ICTJ). (2015). Living with the shadows of the past: The impact of disappearance on wives of the missing in Lebanon (p. 10).

Jennings, A. (2015). Retraumatization [PowerPoint slides]. Retrieved from http://theannainstitute.org

Kimberg, L. (n.d.). Trauma and trauma-informed care. In T. King & M. Wheeler (Eds.), The medical management of vulnerable and underserved patients: Principles, practice, and populations.

Moukheiber, G. (2006, January 2). Lebanese member of parliament. Washington Post.

Pelletier, K. R., Goleman, D., & Gurin, J. (Eds.) (1993). Between mind and body: Stress, emotions, and health in mind body medicine (pp. 19–38). Yonkers, NY: Consumer Reports Books.

Polson, B., & Newton, M. (1984). Not my kid: A family's guide to kids and drugs. Arbor Books / Kids of North Jersey Nurses.

Robbins, S. (2014). Constructing meaning from disappearance: Local memorialization of the missing in Nepal. International Journal of Conflict and Violence, 8(1). https://doi.org/10.4119/ijcv-3048

Scott, J. C. (1990). Domination and the arts of resistance: Hidden transcripts. Yale University Press.

Substance Abuse and Mental Health Services Administration. (2014). A treatment improvement protocol: Trauma-informed care in behavioral health services (TIP 57). U.S. Department of Health and Human Services. Retrieved from

https://library.samhsa.gov/product/tip-57-trauma-informed-care-behavioral-health-services/sma14-4816

Substance Abuse and Mental Health Services Administration. (2014). Concept of trauma and guidance for a trauma-informed care approach. U.S. Department of Health and Human Services. Retrieved from

https://library.samhsa.gov/product/tip-57-trauma-informed-care-behavioral-health-services/sma14-4816

Tristam, P. (2021). Timeline of the Lebanese war from 1975 to 1990. ThoughtCo. https://www.thoughtco.com/timeline-of-the-lebanese-war-2353188

Turnbull, G. J. (1998). A review of post-traumatic stress disorder; part I: Historical development and classification. Injury, 29, 87–91. https://doi.org/10.1016/s0020-1383(97)00131-9

Van Zyl, P. (2006, December 5). Director of ICTJ. Daily Star.

WebMD. (n.d.). What are symptoms of PTSD? WebMD. Retrieved from https://www.webmd.com/mental-health/what-are-symptoms-ptsd

Wolter, D. L. (1995). Forgiving our parents: For adult children from dysfunctional families.

World Health Organization. (n.d.). International classification of diseases for mortality and morbidity statistics (11th Revision). WHO. Retrieved from https://icd.who.int

Act for the DISAPPEARED | لنعمل من أجل المفقودين

إن أردتَ المساعدة، نرجو أن تتصل بنا.

تُبقي جمعية لنعمل من أجل المفقودين جميع
المعلومات سرّيّة، وتحمي تجهيل مصادرها.

info@actforthedisappeared.com

Supported by

german cooperation
DEUTSCHE ZUSAMMENARBEIT

Implemented by

giz Deutsche Gesellschaft für Internationale Zusammenarbeit (GIZ) GmbH